الباب الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الفتح

الأندلس – المعنى الجغرافى والعنصرى [1]:

سمى العرب جميع البلدان الإسبانية التى فتحوها باسم « الأندلس » ، وليس من السهل شرح هذه التسمية ، ويمكن تقريبها من اسم جماعات الفنداليين les Vandales الذين هاجموا إسبانيا ومرّوا بها مهاجرين إلى إفريقيا الشمالية فى مبدأ القرن الخامس الميلادى . إذ يقال إن هؤلاء الفنداليين عند قطعهم مضيق جبل طارق سُمى المرفأ الذى أبحروا منه ، ولعله مرفأ طريف Tarifa أو الجزيرة Algéciras ، سُمى باسمهم وقيل له فندلس ، وقد حافظ هذا المرفأ على هذا الاسم حتى جاء المسلمون فجعلوه شاملا لجميع البلدان التى احتلوها بعد أن حرّفوه وجعلوه « أندلس » .

ومن المؤرخين من يقول إن إقطاعية إسبانيا الجنوبية كلها ، التى كانت تسمى فى العهد الرومانى إقطاعة بيتيك Bétique ، قد سميت بـ « فندالسيا Vandalicia » عند مرور الفنداليين من إسبانيا الجنوبية فى أثناء هجرتهم إلى إفريقيا الشمالية ، ولكن هذا الزعم الأخير لم تؤيده الوثائق .

ومهما يكن من أمر فإن كلمة الأندلس قد استعملها المؤرخون العرب والجغرافيون بسرعة وتقبلوها بسهولة ، وكانت تدل بادئ ذى بدء على إسبانيا كلها ثم أخذت تقتصر على المنطقة التى احتلها المسلمون من الأرض الإسبانية ، ونرى ، حتى هذا اليوم، أن مقاطعات إشبيلية وقرطبة وغرناطة قد حافظت على هذا الاسم .

هذا وإن كلمة « أندلس » كانت تدل على مختلف العناصر التى سكنت

---

(١) انظر : Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle p. 5 et suiv.
انظر أيضاً : بطرس البستانى ، أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث ، ص ٢ وما بعدها .

القسم الذى احتله المسلمون من الجزيرة الإسبانية ، سواء أكانوا من الفاتحين العرب أم من سكان الجزيرة الأصليين الذين خضعوا أو لم يخضعوا للإسلام ، ولهذا لم تكن كلمة «أندلس» لتدل إلا على وحدة خيالية، وكان على الحكام المسلمين أن يواجهوا فى جميع عصور احتلالهم للأندلس معضلة العناصر والأجناس ، فنراهم أحياناً يعملون من ناحية على قمع ثورات وطنية يقوم بها الإسبانيون المغلوبون على أمرهم، ونراهم من ناحية ثانية يضطرون فى أوقات كثيرة إلى قمع حركات داخلية تقوم بها العناصر الفاتحة التى جاءت من مختلف المناطق : من الشرق ومن إفريقيا ومن المغرب ، وهكذا سنرى أن تاريخ الأندلس السياسى كان دائماً مهدداً بخطرين : خطر سكان البلاد الأصليين ، وخطر العناصر الفاتحة ولا سيما البرابرة .

الفتح :

كانت إسبانيا ، فى الوقت الذى أخذت تجذب فيه أنظار العرب على أسوإ حالة من الضعف السياسى والاجتماعى . وهذا ما ساعد على فتحها . فإن الضرائب الباهظة امتصت ثروة الطبقة الوسطى ، واستبد الموسرون ، على قلتهم ، بأراضيهم الخصبة، وأخذوا يستغلونها لترفهم ولملذاتهم، على حين كان الفلاحون عبيداً مرهقين . ولم تبدل النصرانية ، على رغم انتشارها فى إسبانيا، كثيراً من الشرائع الرومانية القديمة . فظلت السيادة لأصحاب الإقطاعات والعبودية للفلاحين والضعفاء . وكان القوط Wisigoth هم الذين دخلوا هذه البلاد فى القرن الخامس للميلاد وأقاموا مطمئنين بعد أن قضوا على سلطان الرومان وأقاموا سلطانهم وانتحلوا النصرانية ديناً ، ولكنهم صاروا بها إلى الاضطهاد وإلى احتقار الرومانيين لأنهم مغلوبون ، فطبيعى أن تُفضى هذه الحالة إلى اختلال فى بناء الدولة ، وأن يمقتها أكثر الشعب ويتمنى زوالها .

وكان على إسبانيا ملك يقال له لذريق Roderic اغتصب العرش القوطى بعد وفاة الملك غيطشة Witiza . وكانت مدينة سبتة Ceuta الواقعة فى أقصى شمالى المغرب يحكمها عامل لقيصر الروم يدعى يليان Julien ، وكانت بينه وبين لذريق عداوة شديدة لا ندخل فى أسبابها ، إلا أن هذه العداوة حملت يليان على السعى

لإسقاط لذريق وثلّ عرشه . لذلك ليس عجيباً أن نراه يساعد العرب ويمهد لهم سبيل الفتح .

« فكتب يليان إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك فى المغرب يُزيّن له فتح الأندلس، ويصف خصب أراضيها ووفرة أموالها وسهولة التغلب عليها لتخاذل أهلها وانقسام بعضهم على بعض ، ووعده بالمساعدة ، فاستأذن موسى بن نصير الخليفةَ بغزو الأندلس فأذن له على أن يأخذ حذره ويخوضها أول الأمر بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ، فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طريف بن مالك النَّخعى ، فى أربعمائة راجل ، ومائة فارس ، فحملتهم أربع سفن ليليان إلى جزيرة الفندال التى اشتق منها اسم الأندلس ، فسميت جزيرة طريف Tarifa لنزوله بها ، وأقاموا فيها أياماً ثم كروا إلى المغرب وقد أصابوا مالاً جسيماً وسبياً لم ير موسى وأصحابه مثله .

« وعاد يليان يحرّض موسى على اقتحام الأندلس حتى أغراه ، وفى الواقع لم يكن موسى ليريد أن يقوم بحملة كبيرة ، إنما كان يرغب القيام بغزو متبعاً بذلك توصية الوليد [١] . وبدافع هذه الفكرة دعا ببربرى من مواليه اسمه طارق بن زياد ، فعقد له ، وبعثه فى سبعة آلاف من البربر ليس فيهم إلاّ ثلثمائة من العرب ، فأقلّتهم سفن يليان التجارية لخمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ، فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة إلى جزيرة الفندال ، ويسميها العرب الجزيرة الخضراء ، وكان نزولهم عند جبل كلبة Calpé فقيل له جبل طارق » [٢] .

ولن ندخل فى تفاصيل الحوادث . فقصة الفتح وما رافقها من زيادة أو نقص موجودة فى مختلف الكتب التاريخية ، ولكننا نشير فقط إلى أن العنصر البربرى هو الذى كان يهيمن فى هذه الحملة الأولى وأن المقاومة التى لاقاها العرب فى الجزيرة الخضراء لم تكن شديدة . فعندما علم ملك الإسبان لذريق بتقدم المسلمين حشد الجيوش وكتب إلى أولاد غيطشة يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم

---

(١) يرى هذا الرأى ليفى بروفنسال ، انظر المصدر السابق ص ٩ .

(٢) بطرس البستانى . المصدر السابق ص ٣ — ٤ .

من القعود عنه ، فلم يجدوا بدًّا من إجابته ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه لأنه كان قد اغتصب الملك من أبيهم — كما ذكرنا — . وفى وادى بكة Bekka التقى الفريقان ، وكان جيش طارق قد أمد بخمسة آلاف بربرى جاءوه من المغرب فبلغ اثنى عشر ألفاً ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم ، وكان جيش لذريق ، على رواية ابن خلدون ، أربعين ألفاً ، وعلى رواية المقرى مائة ألف ، وينقل بطرس البستانى فى كتابه أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث عن كليمان هوار قائلا : « إن جيش الإسبانيين كاد يكون خلواً من الفرسان ، وإن أغلب سلاحه العصى والمقاليع » ولا ندرى إلى أى حد يمكن أن نؤمن بهذا القول . وتحمّل البرابرة صدمة الجيوش القوطية وظفر المسلمون ظفراً لم يكونوا ليحلموا به بعد معارك دامت ثمانية أيام وتمّ النصر للمسلمين فى رمضان سنة ٩٢ هـ .

على أن أولاد غيطشة ويليان صاحب سبتة لم يظاهروا العرب فى غارتهم على الأندلس إلا لاعتقادهم أنهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة أن يعودوا إلى بلادهم ، فشدوا أزرهم للتخلص من لذريق . والعرب أنفسهم لم يكونوا مصممين على البقاء فى إسبانيا عندما اقتحموها ؛ يدل على ذلك حديث رواه المقرى لميمون العابد ، وكان فى عداد الشاميين الذين دخلوا الأندلس ، فقد قال لأحد أولاد غيطشة : « إنا قدمنا إلى هذا البلد غزاةً نحسب أن مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا أكثرنا من العدة »[١] .

وبلغ موسى بنَ نصير فتحُ الأندلس ، فحسد طارقاً ، وطلب إليه أن يتوقف عن الإيغال فى البلاد حتى يأتى إليه ، ولكن طارقاً لم يطعه بل تابع الفتح ، وأراد موسى بن نصير أن يناله نصيب من المجد فحشد جيشاً يزيد على العشرة آلاف من البربر والعرب[٢] وعبر بهم بحر الزقاق ودخل الأندلس فى شهر رمضان سنة ٩٣ هـ ولكن عوضاً عن أن يلحق بطارق أخذ يعمل لحسابه الخاص فافتتح إشبيلية وماردة Mérida فى غربى إسبانيا واستعمل دار السكة وضرب باسمه نقوداً ذهبية .

---

(١) بطرس البستانى ، المصدر نفسه ص ٥ .

(٢) يقول ليفى بروفنسال إن هذا الجيش كان كله من العرب هذه المرة وفيه كثير من اليمانيين والقيسيين مع مواليهم . انظر المصدر السابق ص ٩ .

هذا وقد كانت جيوش طارق قد افتتحت أكثر الأندلس عندما ذهب موسى إلى طليطلة فاستقبله فيها طارق ، ونزل إليه إعظاماً إلا أن موسى قد وبخه على عصيانه ثم أظهر الرضا عنه ، وتابع وإياه الفتح متوغلين فى بلاد الفرنجة . وبينما كانا يتنقلان من بلد إلى آخر إذا بأمر الوليد بن عبد الملك يدعو موسى إليه وقد بلغه ما أصاب من الأموال والغنائم فولّى موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس وعاد مع طارق قاصدين الشرق . وكانت إسبانيا المسلمة قد أدركت حدودها النهائية فى الفتح .

ومنذ أن ترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس بدأ عهد الولاة .

obeikandl.com

الفصل الثانى

عهد الولاة ٩٢ هـ/ ٧١٠ م – ١٣٨ هـ/ ٧٥٥م

إن عهد الولاة فى الأندلس يبدأ فى الواقع بطارق بن زياد ، ثم بموسى بن نصير ثم بابنه عبد العزيز ، فبعد مقتل عبد العزيز هذا بقيت الأندلس نحو ستة أشهر دون أن يرسل بنو أمية والياً إليها . فاجتمع زعماء البربر واختاروا أيوب بن حبيب اللخمى ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، فحكم فى قرطبة مدة قصيرة ، ثم تعاقب الولاة بعدئذ على الأندلس ، فمنهم من كان يعينهم الخليفة ، ومنهم من كان يعينهم عامل إفريقية . وافتتحت بلاد جديدة فى عهدهم كبرشلونة Barcelone وقشتالة Castille وأغار العرب على شواطئ الرون فبلغوا ليون Lyon وتقدموا فى قلب فرنسة حتى بلغوا تور Tours وكادوا يعبرون اللوار عندما هب لملاقاتهم شارل مارتل بجموع الفرنجة فى سهل بواتيه ، وردّهم على أعقابهم ، وقُتل فى الواقعة قائد العرب عبد الرحمن الغافقى والى الأندلس وكان ذلك سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م .

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى فى أوربا بل حدث شقاق عظيم فى المسلمين أنفسهم . فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب ، واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمانية .

ولن نشير هنا إلى تفصيل الحوادث بل نكتفى بالقول إن ثورات البرابرة خلال هذا العهد ليست سوى صدى للحوادث الدامية التى كانت تجرى فى المغرب . فقد حدث أن ثار البرابرة فى المغرب على الشاميين والمصريين ؛ فتحرك برابرة الأندلس وثاروا بواليها عبد الملك بن قطن ، هذا فضلاً عن أن البربر كانوا يعتدّون بأنفسهم لأن الفاتح منهم والفتح قد تم على أيديهم ، ويرون أنهم أولى من غيرهم بتقلد الحكم . وقد حملت ثورات البرابرة الخليفة هشام بن عبد الملك على أن يرسل نجدات إلى

إفريقية وكان من بينها نجدة الجند السوريين تحت قيادة بلج بن بشر الذى استطاع أن يخمد ثورتهم فى إسبانيا .

هؤلاء الجند الشاميون يجلبون انتباهنا ، إذ أنهم سيلعبون دوراً هاماً فى تأسيس الدولة الأموية فى الأندلس ، وسينقلون إليها النظم الشامية والتقاليد العسكرية التى كانت سائدة فى الشام ، والتى ستبقى من مميزات الدولة الأموية فى الأندلس .

وقد أخذ الجند الشاميون يتصرفون فى بلاد الأندلس بحسب أهوائهم ونزعاتهم القبلية ، إلا أن إقامتهم فيها قد كوّنت نواةً عربية هامة أخذت تقاوم نشاط البرابرة وتخفف من غلوائهم .

ومن السهل ، بعدُ ، أن نلاحظ أن وضع المغرب الإسلامى المضطرب كان يستدعى أن يدفع العرب إلى التفكير فى تأسيس دولة قوية فيه ، وستقع مهمة تأسيس هذه الدولة على عاتق عبد الرحمن الداخل بعد أن تضعضعت سلطة الأمويين فى الشرق بنشاط الدعوة العباسية .

الدولة الأموية

إمارة قرطبة المستقلة وعبد الرحمن الداخل حتى خلافة عبد الرحمن الثالث
(١٣٨ هـ / ٧٥٦ م — ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)

بعد أن انهار البيت الأموى فى الشرق وأعمل العباسيون السيف فى رقاب الأمويين ، استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان ، وكان شاباً ، أن ينجو من بطش العباسيين ويفرّ مستخفياً مع مولاه بدر حتى خلص إلى المغرب . وقد بقى خلال أربع سنوات هائماً على وجهه فى شمال إفريقية حتى نزل على أخواله بنى نفزة بالقرب من سبتة . وكان عبد الرحمن فى أثناء تجواله يظهر نشاطاً سياسياً ، فهل كان يرغب بتأسيس دولة فى إفريقيا ؟ إن هذا لممكن ، إلا أن الأرض المواتية لطموحه السياسى ما كانت إلا الأندلس التى تضم نواة أموية شامية وهى جند بلج ، أضف إلى ذلك العوامل الأخرى التى كانت تساعده لتحقيق ما يبغى

كحماية البربر له لأن أمه كانت بربرية .

وقد استطاع عبد الرحمن فى كثير من الحذق السياسى أن يستثمر لصالحه الخاص المنازعات القائمة بين القيسيين واليمانيين ، وكانت كل هذه العوامل سبباً فى نجاحه ، لذلك لم يطأ أرض الأندلس حتى استقبل استقبالاً فاق حدّ خياله . فانتصر على الصُّمَيْل ويوسف الفهرى ، والى الأندلس ، وأهلكهما ، ودانت له الأندلس وأصبح أميرها ولُقِّبَ بالداخل لدخوله إياها ولقّبه أبو جعفر المنصور بصقر قريش ، وكان دخوله قرطبة ، التى جعل فيها سرير ملكه ، فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٩ هـ . فقطع الخطبة عن بنى العباس وَدُعِىَ له على المنابر وبنى المسجد الجامع فى قرطبة واختطّ مدينة الرُّصافة فى شمالها على مثال رُصافة الشام لجدّه هشام ، وجعل بلاطه كبلاط لذريق فى عظمته وبهائه ، وبدأت منذ ذاك العهد إمارة قرطبة المستقلة وتأسست الدولة الأموية .

فما هى صفات هذا التأسيس وما هو منهج مؤسس هذه الإمارة ؟

لم يكن عهد إمارة قرطبة المستقلة فى الواقع سوى عهد طويل لتعزيز السلطة الأموية فى الغرب الإسلامى ، ويجب علينا أن ننتظر عهد خلافة عبد الرحمن الثالث لكى تتمركز نهائيًّا هذه السلطة وتبلغ الحضارة الأموية أوجها وعهدها الذهبى .

ومنذ أن أصبح عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس أخذ فى تحقيق برنامجه . وكان هذا البرنامج يرمى إلى أمور ثلاثة :

١ — تنظيم الجيش الذى قاد إلى الظفر .

٢ — فتح أبواب الأندلس أمام الأمويين المضطهدين فى الشرق .

٣ — إيجاد التفاهم بين عناصر العرب ولا سيما القبائل التى يحارب بعضها بعضاً ، ودعم السلطة الأموية باللجوء إلى توطيد الأمن فى جميع أنحاء البلاد الأندلسية .

ولم تكن سياسته سوى سياسة جلب واسترضاء ، وكان من نتائجها أن أخذت وفود المهاجرين الأمويين تتنال على بلاد الأندلس لدعم هذه الدولة الناشئة ، وتعزيزها ، وكوّن المروانيون ما نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص .

هذا وإن حملة شارلمان الشهيرة تقع فى النصف الثانى من حكم عبد الرحمن

الداخل ، فقد قطع شارلمان جبال البرنه فى جيش من الفرنجة وجاء فحاصر سرقسطة سنة ١٦٢ هـ/٧٧٨ م إلا أنه اضطر لترك الحصار فجاءة عندما استدعى للعودة إلى شواطىء الرين ، فقام عبد الرحمن عندئذ ، مستفيداً من عودة شارلمان ، وحاصر سرقسطة واحتلها مدة قصيرة ثم أرسل حملة لحقت بشارلمان فى مقاطعة الباسك وأنزلت به هزيمة فادحة .

وكان من نتاج هذه المعارك بين العرب وشارلمان فى شمال الأندلس تلك الملحمة الرائعة « أنشودة رولان » التى هتف بها شعراء مجهولون مجدوا فيها مصرع أبطال شارلمان وعلى رأسهم الفارس الكبير رولان وغيره من الأبطال الذين كان يعتز بهم شارلمان .

وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل أربعاً وثلاثين سنة (من سنة ١٣٨ هـ /٧٥٥م إلى ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م) وعند وفاته كانت الدولة الأموية فى الأندلس تتمتع من الناحية السياسية والاجتماعية بجميع صفات الدولة القوية المنظمة ، وكانت تمتاز بطابعها الشامى ، هذا الطابع الذى أخذ يظهر فى التقاليد وفى نمط النظم وأشكال البلاط ، حتى أصبح لدى كل أمير أموى ميلٌ لوسم الأندلس بالسمات التى كانت تمتاز بها الدولة الأموية فى الشرق ، سواء أكان ذلك فى العادات أم فى نمط الحكم أم فى تنظيمات الدولة .

وتداول الملك بعد عبد الرحمن الداخل أبناؤه وأحفاده نذكر من بينهم هشاماً الأول والحكم الأول وعبد الرحمن الثانى وغيرهم ، وفى أثناء حكم عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م — ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) قدم الأندلس من بغداد المغنى زِرْياب تلميذ إسحاق الموصلى ، وقد كان له تأثير كبير فى نقل كثير من العادات الشرقية السائدة فى بلاط بنى العباس إلى بلاد الأندلس . وقد أخذت تلك العادات الحضرية تنتشر فى كثير من التأنق والذوق الناعم ، وتبدو على الأخص فى المأكل وفى قوانين المآدب والحفلات ، وقد كان لقدوم زرياب تأثير كبير فى الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية .

إن نجاح صقر قريش فى تأسيس الدولة الأموية فى الأندلس يعدّ حادثاً هاماً

فى تاريخ العرب ، وإذا كانت الدولة الأموية قد وطدت دعائمها فى هذا العهد عهد إمارة قرطبة المستقلة ، فإنها بلغت أوجها من الرقى والحضارة فى عهد عبد الرحمن الثالث . فبملكه تبدأ الخلافة الأموية فى قرطبة سنة ٣٠٠ للهجرة ، هذه الخلافة التى ازدهر فيها الأدب والفن ازدهاراً سنرى مداه ونشعر بأصالته وغزارته .

obeikandl.com

الفصل الثالث

خلافة قرطبة وعبد الرحمن الثالث

عندما تقلّد عبد الرحمن الثالث زمام الحكم كان قد بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة . وعلى الرغم من صغر سنه فقد إختاره جده عبد الله لما توسم فيه من المقدرة والصفات الحسنة . وقد دام ملكه خمسين حَوْلا من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م إلى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م . ولم يعرف التاريخ الإسلامى عهداً زاهراً كعهده ، وقد سمحت له مدة مُلكه الطويلة أن يؤمّن لسياسته نوعاً من الاستقرار لم يعرفه الملوك الذين سبقوه ولا الذين لحقوه . فشَهد إلى الميادين يخمد الفتن ومراكز الثورات التى لم تنطفئ نارها منذ أن أقدم المسلمون إلى الجزيرة الإسبانية عاملاً على إخضاع العصاة وجمع كلمة المسلمين ، ثم قام بغزوات لقهر المناوئين من ملوك الإسبان فدان أكثرهم له ووفدوا إلى بلاطه خاضعين ، وذاع صيته وانتشرت سطوته فوفد إلى حضرته السفراء من القسطنطينية وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، وجعل الأندلس أمة واحدة تحت سلطانه واستكثر من الصقالبة واعتمد عليهم فى الجيش وخطط الدولة ، فأزال بهم زعامة الأرستقراطية العربية .

وكان أمراء بنى أمية يطمعون فى استرجاع الخلافة ويتحينون لها الفرص ولم يتلقبوا أول أمرهم بألقابها مخافة أن يجد المسلمون فى عملهم بدعة لأن الخلافة العباسية كانت فى إبان عظمتها ، فلا مسوغ لقيام خلافة أخرى ، فلما صار أمرها إلى الضعف وبدأ الانحلال والوهن يدب فى جسمها حتى أصبح الخليفة ألعوبة فى أيدى الجند من الأتراك ومن مواليه سنحت الفرصة لملوك الأندلس ، فاغتنمها عبد الرحمن الثالث وأعلن نفسه خليفة ولُقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

وكان الناصر أعظم ملوك الأندلس وأول خليفة فيها . بلغت الأندلس فى زمنه أوج مجدها ، واحتلت مكانة سياسية ومدنية عظيمة فى نظر المسيحية والعالم

الإسلامى نفسه . ونهضت الآداب والعلوم نهضة مباركة ونافست قرطبة بغداد فى أعظم أيامها . فبلغ عدد سكانها فيما يروون نصف مليون وكان فيها مئة وثلاثة عشر ألف جامع وثلاثمائة حمام وثمان وعشرون ضاحية . حتى لم يعد لها فى كل المغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة المحال وفسحة الأسواق وكثرة العمارات والحمامات والفنادق [١].

وبنى الناصر على مقربة من عاصمة ملكه قرطبة قصراً أسماه الزهراء باسم جارية له كانت تمنت عليه أن يبنى لها قصراً . فكانت الزهراء هذا القصر الفخم الذى قضى الناصر فى بنائه وإعداده خمساً وعشرين سنة واستدعى للعمل فيه مهرة البنائين من بغداد والقسطنطينية ، وأجرى فيه المياه وأنشأ حوله الحدائق والبساتين بحيث أصبحت قرطبة وزهراؤها مدينةً سحرية تخلب الناظرين بجمالها .

وقد ذكر المقرى : « أن مُلْكَ الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعةً راغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية الكبرى فإنه هاداه ورغب فى موادعته » [٢] وقد زخرت بيوت الأموال فى زمنه فبلغ دخل الخزينة نحو ستة ملايين دينار فى العام . وكان الناصر يقسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مُدّخر .

وقد أنشأ أسطولاً زاحم به أسطول الفاطميين وجيشاً قوياً سيطر به على أكثر بلاد الأندلس ، وأسس المدارس وشجع العلماء ونهضت الآداب والفنون فى زمنه نهضة مباركة .

ولما توفى عبد الرحمن الناصر كان له من العمر سبعون عاماً . وقد عرفت بلاد الأندلس فى زمنه حياة الدعة والرخاء وحقّ لقرطبة أن تدعى مدينة العلم والأدب والفن .

---

(١) انظر : جبرائيل جبور ، من مقال له عن الأدب الأندلسى فى مجلة الأبحاث — بيروت ، السنة ٢ الجزء ٢ ، حزيران ١٩٤٩ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٩ .

الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

انتقلت الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر إلى ابنه الحَكم ، وجرت بيعته فى حفل عظيم وصفه المقرى وصفاً مفصلاً يدل على أبهة المراسيم التى جرت [١] .

كان الحَكم كأبيه حازماً حسن التدبير ، أخضع الثائرين من الفرنجة ، وملك خمس عشرة سنة (٣٥٠–٣٦٦هـ) فى يُمْنٍ وإقبال . وكان الحَكَم ميالاً إلى العلوم والآداب محبًّا لها مكرماً لأهلها جَمَّاعاً للكتب بأنواعها ، ذكر المقرى أن عدد الفهارس فى خزانة العلوم والكتب فى عهده بلغت أربعاً وأربعين فهرسة ؛ فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير [٢] .

وقد امتاز عهده بإنشاء المدارس والمكاتب فابتنى فى قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة . وجعلها مجاناً للطلاب ، وأتم بناء الجامع الكبير الذى كانت تدرس فيه العلوم والآداب العالية ، وأرسل البعوث العلمية إلى الشرق فكانت تنسخ له الكتب وتأتى بها إليه حتى جمع فى خزانته أربعمائة ألف كتاب ، وذكر المقرى أنه اشترى نسخة من الأغانى بمبلغ ألف دينار من الذهب .

الحاجب المنصور – استبداد العامريين :

كان الحَكَم قد عهد ، فى حياته ، أمر الإشراف على ابنه هشام إلى محمد بن أبى عامر ، وكان شابًّا ذكيًّا استطاع بدهائه أن يكسب عطف الملكة صُبْح ، امرأة الحَكم ، الإسبانية الأصل ، وقد كانت تهواه . واستطاع أيضاً أن يتقلب فى مناصب عالية حتى أصبح حاجباً ، وبعد موت الحكم استبد بشئون الدولة مستغلاً حداثة سن هشام ، فأخذ يتخلص من منافسيه واحداً واحداً حتى تنكر فى النهاية لصبح نفسها وتسلم زمام الأمور بيده واستبد بالملك وأصبح ملكًا على الأندلس ولقَّب نفسه بالحاجب المنصور ، ودعى له على المنابر ، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة .

---

(١) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ – ١٨٣ .

(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ١٨٢ .

وقد كان المنصور كثير الغارات قام بنحو عشرين غزوة استرد بها ما كان فقده الحكم فى أواخر عهده حين انصرف بكليته إلى الآداب والعلوم . وقد أعاد إلى الملك سطوته ومجده وهابه ملوك الإسبان . وبموته سنة ٣٩٣ هـ وموت ابنه المظفر من بعده ينتهى حكم العامريين المستبد وتعود السلطة إلى البيت المروانى ويطرأ على الدولة الفساد وتسود الفوضى ويضطرب الأمن وتسير خلافة قرطبة نحو الاضمحلال والضعف .

وقد تجلّى بطش المنصور فى غزواته الكثيرة على الفرنجة وهدمه مدنهم حتى أنزل الرعب فى قلوبهم . وقد كان محبًّا للفلسفة فرُمِىَ بالزندقة ، وقرّب العلماء والشعراء وأحسن صلاتهم فنطقوا بحمده وأشادوا بذكره .

وقد كانت الفترة التى تلت موتَ المنصور فترةً مضطربة تعاقب فيها خلفاء ضعفاء إلى أن انتهت بخلع هشام الثالث سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١ م، فكان آخر خليفة فى قرطبة، فانقطعت الخلافة الأموية، وصار الأمر فى قرطبة إلى الطبقة الأرستقراطية . ثم قام رؤساء الطوائف فى الولايات ، من بربر وعرب وموال ، يقتسمون خططها ويستبدون بأمرها ، فعرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف .

الفصل الرابع

ملوك الطوائف

٤٠٣ هـ/١٠١٢ م – ٥٣٦ هـ/١١٤١ م

عندما أخذ الضعف يدب فى جسم الدولة الأموية ، بعد أن استبد العامريون بأمر الخلافة ، بدأ رؤساء الطوائف يستقلون بالإمارات التى يحكمونها فعرفوا بملوك الطوائف .

وقد أصبحت المدن الهامة فى الأندلس عواصم لهذه الدويلات الصغيرة . ومن أهم هذه الدويلات[1] :

الدولة الزيرية : استقلت فى غرناطة سنة ٤٠٣ هـ ، وهى دولة بربرية ، ظل مُلْكها إلى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م .

والدولة الحمودية : استقلت فى عهد المستعين الأموى سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م، وهى شيعية من المغرب تنتسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن على . تنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ، وانقرضت سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م

والدولة الهودية : فى سرقسطة Saragosse من سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م إلى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وهى دولة عربية أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤتمن .

والدولة العامرية : فى بلنسية Valence من سنة ٤١٢ هـ/١٠٢١ م إلى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥ م وهم من موالى بنى عامر .

والدولة العبادية : فى إشبيلية من سنة ٤١٤ هـ/١٠٢٣ م إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وهى عربية من بنى لخم من ولد النعمان بن المنذر ، وقد اتصل بملوكها الشاعر بن زيدون ، وهى من أبهج الدول فى الكرم والفضل والأدب .

---

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون ، وقد استقينا هذه المعلومات باختصار عن كتاب أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستانى .

ودولة بنى الأفطس : فى بطليوس Badajoz من سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون .

والدولة الجهورية : فى قرطبة من سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م قامت بعد سقوط الخلافة الأموية . فتولى الأمر عميد طبقة الخواص فى قرطبة أبو الحزم بن جهور ثم توارث الحكم أبناؤه من بعده .

ودولة ذى النون : فى طليطلة من سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٧٥ م وهى بربرية من قبائل هوارة .

وقد قامت بين ملوك الطوائف حروب متصلة ، وكان القوى فيهم يغلب الضعيف فيزيل سلطانه كما حدث أن أزال ملوك بنى عباد حكم بنى جهور فى قرطبة . ولم يتوان بعضهم عن أن يستنجد بملوك الفرنجة ، فيغتنم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ويستولون على عواصمها ويخضعون ملوكها ويجعلونهم عمالا لهم ، كما فعل فرديناند الأول بالمظفر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ، وكما فعل ألفونس السادس بملك سرقسطة .

ولم يكن التنافس بين هؤلاء الملوك سياسيًّا فقط ، بل كان أيضاً عمرانيًّا وأدبيًّا وفنيًّا ، فتنافسوا فى ابتناء الحصون والقلاع وتنافسوا فى مجالس الأدب والطرب وفى تشجيع الشعراء والكتاب والمغنين .

وكان من بين هؤلاء الملوك من خطب لخلفاء بنى أمية وإن زالت خلافتهم ومنهم من خطب لبنى العباس على رغم بعدهم عنهم ، ومنهم من تقلب بنعوت الخلفاء كبنى عباد فكان منهم المعتضد والمعتمد .

ومن أجل تهافتهم على هذه النعوت العباسية قال الشاعر أبو بكر بن عمار يهجوهم :

مما يُزَهِّدُنى فى أَرض أَندلسٍ أَسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ
أَلقَابُ مملكة فى غيرِ موضعها كالهرِّ يحكى انتفاخاً صَولةَ الأَسدِ[1]

(١) نفح الطيب ، ج ٢ ص ١١٢٥ .

ومن الإنصاف لهؤلاء الملوك أن نذكر أنهم رعوا حركة الأدب وقرّبوا أصحابها وكانت أكثر عواصمهم أسواقاً لها ، وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفر وابنه المتوكل مَلِكَىْ بطليوس، والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وكان أكثرهم يدعو إلى بلاطه العلماء والشعراء والفلاسفة يحاضرهم ويجالسهم ، وفى عهدهم ظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجة .

ودام أمر الطوائف نحو مائة سنة تقريباً استطاع فى أواخرها ملوك الإسبان من جمع كلمتهم فهاجموا هذه الدويلات واحدةً واحدة وقضوا عليها حتّى بلغوا إشبيلية عاصمة بنى العباد فضايقوا المعتمد حتّى اضطر إلى أن يطلب النجدة من أمير المرابطين فى العدوة الإفريقية . فجاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ومحا ملوك الطوائف ، إلا دولة سرقسطة فإن صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً ، ولم ينل منها المرابطون إلاّ فى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، واستعادها ألفونس الأول ملك أرغون Aragon سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م .

دولة المرابطين[١]

تنحدر هذه الدولة من قبيلة لمتونة من برابرة صنهاجة فى المغرب ، وكان من عادتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم فلقبوا بالملثمين .

وسُمُّوا بالمرابطين لأن أحدهم يحيى بن إبراهيم أسلم فجاء بفقيه اسمه عبد الله بن ياسين ليعلم قبيلته القرآن وأحكام الدين . ثم مات يحيى فتفرق الناس عن الفقيه ، فلم يفتّ ذلك فى عضده بل جمع فئة منهم واعتزل بهم فى جزيرة من السنغال ، وابتنى لهم رباطاً فسموا المرابطين [٢].

ولما كَثُر عددهم حتى بلغوا الألف قام عبد الله وحضّهم على الجهاد فى سبيل الحق وأمرهم بإرشاد عشائرهم ، ولما أبت هذه أن تهتدى بهديهم شنوا عليها الغارة وقتلوا منها خلقاً كثيراً حتى أسلمت . ثم تابعوا الغزوات فى بلاد المغرب يدْعون الناس إلى دينهم ناشرين الرّعب والهوْل فى تلك الأنحاء .

وجعل عبد الله قيادة الجيش ليحيى بن عمر ، وكانت له زعامة فى قبيلته لَمْتُونة ، فابتدأت به دولة المرابطين سنة ٤٨٨ هـ . فلما مات خَلَفَه أخوه أبو بكر ، ثم تنازل أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ ، فدوّخ يوسف المغربَ وفتح فاس وطنجة وسبتة وبنى مراكش وجعلها داراً له فعظمت هيبته وذاع ذكره .

وكانت الأندلس فى تلك الحال تعانى أشد الضيم من ملوك الإسبان . فإن ألفونس السادس صاحب قشتالة غزاها غير مرة ، وأثخن فى المسلمين ، وأخضع ملوك الطوائف ، حتى بلغ جزيرة طريف ، وأدخل قوائم فرسه فى البحر وقال : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » فلما بلغ الضعف بالمسلمين حدّه أجمعوا رأيهم على استنفار يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية

---

(١) باختصار عن بطرس البستانى ، المصدر السابق .

(٢) الرباط والرابطة : مكان ينفرد به المسلمون للعبادة ويتأهبون فيه للجهاد ، فهو بيت دين وحرب .

يعلمه بحال الأندلس ويسأله النصر والإعانة ، وكتب إليه أهل الأندلس كافةً يستنجدونه على العدو المغير ، فجمع جيشاً كثيفاً وجاء إلى نجدة المعتمد فى كتائب بربرية من قبائل زناتة ومصمودة وقهر الإفرنج فى واقعة الزّلاّقة الشهيرة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، فازداد يوسف بن تاشفين عظمة بهذا الانتصار وتلقّب منذ ذلك اليوم بأمير المسلمين وأتاه به تقليد الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ، ولقبه ناصر الدولة . ثم رجع يوسف إلى المغرب ظافراً منصوراً بعد أن ثَبَّتَ للمعتمد سلطته .

وما كادت تنقضى ثلاث سنوات حتى أعاد الإفرنج الكرّة وطلب المعتمد النجدة ثانية فعاد ابن تاشفين وقضى على المناوئين سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، وهنا طابت لابن تاشفين الأندلس ورياضها الغناء وقصورها ومُناها[1] ومواردها الصافية فاستبد بالملك لنفسه ، وانتحل الخصومة مع المعتمد وأخذه أسيراً إلى أغمات فى أفريقية حيث قضَى غمًّا وحزناً فى منفاه وَملك ابنُ تاشفين الأندلس .

وتوفى يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، بعد أن أصبحت الأندلس ولاية للمرابطين ، وآلت إمارة المسلمين بعده إلى ولده علىّ ، فجعل مقره مراكش وترك فى الأندلس أخاه .

ولم تنعم الأندلس فى دولة علىّ فإن تعصبه الشديد للدين ، واستمساكه بمذهب مالك وكُرْهَ غيره من المذاهب جعله آلة بيد الفقهاء فساد التعصب والإرهاب ، وكثرت الوشايات ، وخُنقت حرية الفكر . وفى أيامه ظهر المهدىّ محمد بن تومرت فى جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالا على دولة المرابطين وسبباً لقيام دولة الموحدين .

ودام حكم المرابطين فى الأندلس نحو ستين سنة أديل منهم بعدها إلى الموحدين .

---

(١) منى : ج منية ، وهى قصر يحيط به روض .

دولة المُوَحِّدين

(٥٢٤ / ١١٢٩ م – ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م)

الموحِّدون طائفة أخرى من إفريقية من أصحاب ابن تومرت الذى أراد أن يضع للدين عهداً جديداً فدعا نفسه بالموحِّد وجمع حوله الأنصار وأعلنت شيعته بعد ذلك الجهاد على المرابطين فغلبوهم فى إفريقية ثم نقلوا الحرب إلى الأندلس وغلبوهم أيضاً فيها . وإليكم نبذة عن نشأتهم[1].

نشأ محمد بن تومرت فى جبل السوس من المغرب الأقصى وقومه من بنى مصمودة ، وهى قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد . وبدت عليه دلائل التقوى منذ حداثته فكان يزور قبور الأولياء ويتبرك بها . وطلب العلم فى بلده فوجد أن المدارس فى الغرب لا غناء فيها فرحل إلى الشرق وجاء بغداد ، وتلمذ لأبى حامد الغزالى فى المدرسة النظامية ، فأخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم وأصول الدين .

فلما رجع إلى المغرب شرع يدعو الناس إلى التمسك بأهداب الشرع وإقامة أحكام السنة ، ويبين لهم فساد الملوك والأمراء وظلمهم ويدعوهم إلى عصيانهم ، وأطلق على طريقته اسم التوحيد فتبعه خلق من بنى قومه عُرفوا بالموحدين . ثم أوقع فى خلَدهم أن النبى بشّر بالمهدى الذى يملأ الأرض عدلا ، وقال إنه يخرج من المغرب الأقصى . فقام إليه عشرة رجال وقالوا له : « أنت المهدى » وبايعوه ، وساروا فى ركابه ، يبثون له الدعوة فى بلاد المصامدة ، حتى كثر أتباعه ، ورسخت تعاليمه ، فدعاهم إلى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم فبايعوه على الموت ، فراحوا يغزون فى بلاد المغرب ويوقعون بالمرابطين حتى بلغوا مراكش فحصروها ، ولكنها امتنعت عليهم ، ومات المهدى سنة ٥٢٤ هـ ، قبل أن يفتحوها ، وكان قد أوصى بعده لعبد المؤمن بن علىّ ، أحبّ صحابته إليه ، فبايعوه بالخلافة وتلقّب بأمير المؤمنين .

---

(١) باختصار عن : بطرس البستانى ، المصدر السابق .

وتابع عبد المؤمن جهاده حتى أزال دولة المرابطين وأقام دولة الموحدين ، وجاءته الوفود من الأندلس تدعوه فأجاز إليها جيشاً من الموحدين وامتلكها وجعلها من ولاياته .

وبلغت دولة الموحدين أوج عزها فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الثانى بعد المهدى (دامت خلافته من سنة ٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ثم فى عهد ولده أبى يوسف يعقوب الخليفة المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) .

ومع تمسُّك الموحدين بأمور الدين ، كانوا أكثر ميلا من المرابطين إلى تشجيع العلوم والآداب وأعلق منهم بالحضارة : فإن أبا يعقوب استقدم الفلاسفة إلى بلاطه كابن طفيل وابن رشد ، وعنى بالعمارة ، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير فى إشبيلية .

وقد دام ملك الموحدين نحو مئة وثلاثين سنة استطاع بعدها ملوك النصارى فى الأندلس قهرهم وإخراجهم من الجزيرة والاستيلاء على أكثر إماراتها .

دولة بنى الأحمر[١]

بعد زوال الموحدين من الأندلس ، استطاع محمد بن هود صاحب بطليوس أن يبسط سلطانه على كثير من المدن الأندلسية فشمل به بطليوس ومرسية وقرطبة وإشبيلية . وكان يرى فى مقاتلة أعدائه النصارى عاملاً لدعم قوته وسلطانه ، ولكنه كان أضعف من أن يردهم عن مملكته ويحرس استقلالها . وفى هذا الوقت الذى كانت فيه الأندلس ترزح تحت عبء الفتنة والضعف كان فى أرجُونة ، من حصون قرطبة ، قبيلة عربية من بنى الأحمر عميدها محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بنى نصر ، فقام هذا أيضاً بقتال النصارى ، ولكن روح التنافس والضعف لم تكن لتسمح للمسلمين بالتفوق ، واستطاع الإفرنج أن يستولوا على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحصروها ستة أشهر ثم سقطت فى أيديهم سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، وكان سقوطها كارثة عظيمة بعد أن لبثت نحو خمسمائة وعشرين سنة عاصمة مملكة إسبانيا المسلمة[٢]. وقتل ابن هود فى المرية Almería ولم يبق للمسلمين غير إقطاعة الأندلس وعاصمتها غرناطة يتولاها ابن الأحمر أمير المسلمين من قبل فرديناند الثالث . وهذه الدولة الصغيرة استطاعت أن تقف فى وجه التوسع الإفرنجى مدة طالت نحو قرنين ونصف ، ويعود ذلك إلى أن الملوك الإسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم بعضاً ، وأنها كانت تستنجد سلاطين المغرب فى ضنكها فيجيزون إليها جيوشهم لدفع المسيحيين عن أرباضها .

وقد عرفت غرناطة فى حكم بنى الأحمر أزهى عصورها وفيها شيدت قصور الحمراء التى لا تزال ماثلة حتى اليوم . وامتاز عصرهم بتعزيز الآداب ، فنبغ فى دولتهم جملة من الشعراء والكتاب ، وعُرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر ،

---

(١) باختصار عن : بطرس البستانى ، المصدر السابق . انظر أيضاً : محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ص ١٨ – ٤٠ .

(٢) راجع سقوط قرطبة فى تاريخ ابن خلدون وفى نفح الطيب .

كأبى عبد الله محمد بن محمد المخلوع ثالث ملوكهم .

وفى سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م ، أى بعد نحو ثمانية قرون من عام الفتح ، هاجم فرديناند وإيزابيلا بنى الأحمر فسقطت غرناطة ، آخر معقل للفاتحين ، وسلّم أبو عبد الله ، آخر ملوكها ، مفاتيحَ الحمراء إلى الغالبين .

ويروى أن أبا عبد الله قد أعطى ضيعة يقيم فيها ،فخرج وأهله من قصر الحمراء حزيناً منخلع القلب ، ومشى مطرقاً إلى منفاه ، حتى إذا انعطف به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، أرسل إليها النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع ، فقالت له أمه عائشة :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى إلى اليوم زفرة المغربى . وأقام أبو عبد الله فى ضيعته الجديدة مدة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بفاس واتخذها مقرًّا حتى مات . وهكذا زال ملك العرب من بلاد تركوا فيها مجدهم وآثارهم وحضارتهم وجلا آخر عربى تحت تأثير اضطهاد الإسبانيين الذين لم يفوا بعهودهم وأقفر الفردوس المفقود .

وصارَ ما كانَ مِن مُلْكٍ ومِن مَلِكٍ كما حَكَى عن خيالِ الطَّيْفِ وَسْنانُ

السمات المميزة لهذه الأدوار [1] :

تتسم مختلف هذه العصور بسمات خاصة : فالدور الأموى الذى يشمل عهد الولاة وعهد الإمارة وعهد الخلافة كان دور السيادة العربية . فيه نزح إلى الجزيرة الإسبانية أكثر من جاء إليها من العرب ولا سيما أهل الشام وتفرّقوا فى المدن الأندلسية . وقد نشط العمران فى هذا الدور وتوضّحت فى آخره أسس النهضة الأدبية والغنائية .

---

(١) باختصار عن الدكتور جبرائيل جبور ، من مقال له فى مجلة الأبحاث عن الأدب الأندلسى .

أما الدور الثانى دور طوائف الملوك فقد تميز بازدهار الحركة الأدبية وكثرة الشعراء والشاعرات وشاع فن الموشح بعد أن ظهرت طلائعه فى مطلع هذا الدور .

واتسم دور المرابطين بالتعصب الدينى وبتسلط البرابرة وضعف الحركة الأدبية وظهور الزجل ، هذا الشعر العامىّ الشعبى الذى لاقى رواجاً كبيراً فى هذا العهد وكاد ينافس الشعر التقليدى .

وتميز دور الموحدين بالحماسة الدينية ، ولكنها لم تقيد الفلاسفة فنمت الحركة الفلسفية نموًّا دعا إليه التأمل الدينى من ناحية والتفكير الفلسفى الحر من ناحية أخرى .

أما دور بنى الأحمر والجلاء فقد عُرف بحياة الرخاء وحياة القلق ، رخاء داخلى وقلق يبثه فى النفوس عدوّ متربص شَعَر بضعف الفاتحين واستسلامهم فأخذ ينزل بهم النكبة تلْوَ النكبة ، وفى هذه الغمرة أخذت النفوس الحساسة تنشر شعر الأنين حيناً وتجأر بشعر الاستنجاد والصريخ حيناً آخر . وقد نضجت فى هذا الدور تلك الفنون الأدبية التى استحدثت فى الأندلس من موشحات وأزجال وساعدت أوزانها وتقاسيمها على أن تجد فى اللحن والغناء طريق ذيوعها وانتشارها بين الناس بعد أن وجد لها الغناء نفسه طريق نشأتها وسبيل بزوغها[1] .

وقد شهد هذا الدور أعظم محنة نزلت بالعرب على أيدى ملوك الإفرنج وزعمائهم الدينيين ، وتجلّتْ فى ألوان من الاضطهاد الدينى والقسوة والتعذيب الذى لم ينته إلا بعد أن تمّ الجلاء الأخير سنة ١٦٠٩ م . وكانت دواوين التفتيش التى أنشأها الإفرنج لمحو كل أثر للإسلام والعرب ، لطخة عار فى تاريخ المدنية . وقد أحرقت تحت تأثير هذه الحملة التعصبية الكتب العربية الكثيرة وأبيدت روائع الفكر الإسلامى وأتلفت آثار العبقريات ، ولولا أن هذه العبقريات العربية كانت أقوى من يد

---

(١) يرى الدكتور جبرائيل جبور أن اتصال هذه الفنون الجديدة بحياة العامة من سكان الجزيرة الأصليين كان عاملا على ظهور فن شعرى غنائى عند التروبادور Troubadours وليس لدينا ما ينفى هذا القول إلا أنه من الممكن أن يكون التروبادور أنفسهم قد أثروا فى نشأة بعض هذه الفنون الشعرية الأندلسية وأثر فيها أيضاً أدب اللغة الرومانية Roman نفسها وقد كان معروفاً على حدود الدولة الإسلامية القائمة فى إسبانيا .

الإنسان الغاشم لما كنت ترى اليوم ما يشهد على ما شاده الفكر العربى فى بلاد الأندلس من مجد وما مدّ به الحضارة الأوربية والإنسانية من روح أصيل . كل ذلك قد جرى مقابل اللين والتساهل اللذين أبداهما الفاتحون العرب للنصارى واليهود فى الأندلس والتشجيع الذى أغدقوه لنقل العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية فى جميع الأمصار التى فتحها العرب .

* * *

وقد شهدت بلاد الأندلس طوال هذه الأدوار مختلف المعارك وضروب المحن واللهو والاضطهاد والتساهل ، وجرى فيها كثير من الاختلاط بين الأجناس والأقوام ، فالعرب الذين تحدّروا إلى الأندلس ، جاءوها بطوائفهم الكثيرة وقبائلهم المختلفة ومواليهم الذين ينتمون إلى شتّى الجنسيات فى الشرق ، والبربر إنما نزلوا بها مع الفاتحين ، وامتزجوا جميعاً بسكان الجزيرة الأندلسية وما يجاورها من قوط وإسبان وصقالبة وغيرهم من شعوب الفرنجة . ونشأ من هذا الاختلاط أجيال جديدة مولّدة ، لم تتصف بها الأقطار الأخرى التى دخلها العرب فى فتوحاتهم .

وسنرى تفصيل هذه العناصر التى كوّنت شخصية الأندلسى .

الفصل الخامس

عناصر الشعب الأندلسى

لدراسة عناصر الشعب الأندلسى[1] يجب أن نبدأ بعهد الفتح الذى يسوغ الهجرات الأولى التى هى فى نظرنا أهم الهجرات ، ثم نستعرض الحوادث السياسية التى كانت سبباً ، فى التالى ، لدفعات شعبية نحو الجزيرة من أصل شرقى أو إفريقى . وهذه الدفعات العربية والبربرية لا يمكن تفريقها ، فالحوادث التى سببتها مختلطة فى تشعبات تاريخ مبدأ الإسلام فى إسبانيا .

ومما لا شك فيه أن إسبانيا قد فتحت فى بادئ الأمر بعون البربر ، بل لعل الحملة الأولى كانت مؤلفة من برابرة فقط كما ذكرنا وكما يؤكده المستشرق ليفى بروفنسال ، ولم يدخل العنصر العربى الجزيرة الإسبانية إلا عندما قدم إليها موسى ابن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية .

ويظهر لنا أنه بعد أن تم الفتح وعاد طارق وموسى إلى الشرق ، بقى الجنود الفاتحون ، خلال السنين الأولى ، فى الجزيرة لا يغادرونها ، فأقاموا فى هذه البلاد الجديدة وتزوج أكثرهم بنساء الشعب المغلوب وأسسوا أسراً .

ولكن هذه النواة البربرية العربية العسكرية قد تبعها ، خلال القرن الثامن الميلادى ، دفعات أخرى هامة إفريقية وشرقية ، ويظهر أن الولاة الذين كانت تعينهم دمشق لم يحبذوا بادئ الأمر إسكان الجزيرة بالعرب ، ويتراءى من إشارات المؤرخين أن بربر المغرب قد قدموا الجزيرة مدفوعين بخيراتها . ولكنهم منذ البدء لم يلاقوا استقبالا حسناً ، وهكذا أخذ المغاربة البرابرة يتدفقون نحو الجزيرة ويكونون الأكثرية الإسلامية فيها ، واستطاعوا بهذه الكثرة أن يقاوموا العرب ويقوموا بفتن عديدة ، وكانت كل ثورة يقوم بها البرابرة فى المغرب تجد صداها فى بلاد الأندلس ، وما إرسال جنود بَلَنْج الشاميين إلى بلاد المغرب ومنها إلى الأندلس إلا

(١) انظر : Lévi-Provençal, Ibid., P. 8-40 .

لقمع هذه الثورات ، وقد استطاع هؤلاء الجنود الشاميون سحق البرابرة إلا أن خطرهم كان جاثماً .

إن قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الجزيرة قد سبب تدفقاً جديداً للعرب نحوها . وقد استدعى إليها عدداً كبيراً من المغاربة المسلمين ، بينهم عدد من البربر لتقوية جنده ، ويشير المقرى إلى أن عبد الرحمن الداخل قد اعتمد على البرابرة فى مبدأ حكمه ليقاوم العناصر العربية المناوئة ولكن هذا لم يمنع البرابرة أيضاً من القيام بحركات عصيان . ومهما يكن من أمر فإن اضطراب هذه العناصر البربرية والعربية لم يهدأ إلا عندما استطاع عبد الرحمن الثالث إخضاعهم إلى الطريق السوىّ ، فأذعنوا عندئذ لهيبة الملك، وخضعوا للسلطان الذى شاده . وهكذا نلاحظ أن مجرى الهجرة نحو إسبانيا كان تابعاً للحوادث السياسية لا سيما فى العهدين الأولين : عهد الولاة وعهد الإمارة ، وكانت الصبغة البربرية هى الطاغية إلى أن جاء عهد الخلافة .

* * *

يميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التى جاءت فحلّت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التى اعتنقت الإسلام ، وهذه العناصر الإسبانية المسلمة تسمى ، عند المؤرخين العرب بالمسالمة أو بالمولّدين . فاسم المسالمة يطلق على الإسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام ، واسم المولدين على نسلهم . أما الإسبانيون الذين احتفظوا بدينهم فيسمون بالعجم أى الأغراب أو الأجانب .

وكان المولّدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية . لقد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب ، بعد عدة أجيال مضت ، تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم فى الازدياد منذ حُكْم عبد الرحمن الثانى إذ قد اعتنق فى عهده كثير من الإسبانيين الدين الإسلامى ، وكان بينهم من دخل فى خدمة العرب المسلمين وأصبحوا موالى لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الإسبانى ، ومن هذه الأسر الإسبانية التى اعتنقت الإسلام من كانت غنيةً وقوية لا سيما فى إشبيلية التى وجد فيها الإسلام أنصاراً

منذ ظهوره فى الجزيرة ، ولا شك أن الصلات أصبحت وثيقة بين العرب والمولدين على أثر الاختلاط والزواج ، ولم يبق بين أكثر العرب من لا يجرى فى عروقه دم إسبانى . وهذا الاختلاط قد كثر زمن الخلافة الأموية ولا سيما فى المدن .

هذا وقد قلّ شأن الدور السياسى والاجتماعى الذى لعبته الأسر العربية الكبيرة فى مبدأ الاحتلال ، وأخذت هذه الأسر تخضع للنظام الأموى الذى عمّ الجزيرة منذ نهاية القرن التاسع الميلادى .

وعندما حلّ عهد ملوك الطوائف كنتَ ترى منْ كان أصله بربريًّا ومن كان أصله عربيًّا ، إلا أنّ الصفة الأندلسية هى التى كانت تربط العرب بعضهم ببعض ، فهم أندلسيون قبل كل شىء ، ولهذا يجب ألا نتحدث إلا عن طائفة أندلسية وأخرى بربرية وثالثة صقلبية نسبة إلى الصقالبة ، أما الطائفة العربية فهى بالأحرى تلك التى نسميها أندلسية .

وكان من عادة مؤلفى التراجم عندما يذكرون ترجمة رجل عربى أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجد الأول الذى جاء إلى الأندلس ، فيسلسلون نسبه عادةً إلى أن يصلوا إلى عهد موسى بن نصير أو يجعلونه منحدراً من أحد الأشخاص الذين جاءوا مع حملة بلج ، ومن النادر ألا يكون هذا الجد الأول من رجال ما يسمونه (الطالعة الأولى) أو البلديين أى من رجال حملة الفتح ، أو من رجال (الطالعة الثانية) أى جند بلج أو الشاميين . وقد حافظ عرب إسبانيا على تقسيمهم القَبَلىّ حتى جاء المنصور بن أبى عامر ، ويشير المقرى إلى ذلك فيقول : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس »[1] وقد رأينا أن المهاجرين الأولين قد نقلوا معهم نزاعهم القبلى : بين قيسيين ويمانيين ، وعندما هدأ هذا التنافس ، مع الزمن ، لم يمح مع ذلك هذا التقسيم العنصرى الذى كان أساساً لكتاب الأنساب الذى ألفه ابن حزم ، وظهر أيضاً فى رسالة ابن غالب

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ – العمائر : ج عميرة وهى الحى العظيم .

« فرحة الأنفس » التى يذكرها المقرى[١] والتى تقدّم لنا معلومات قيمة عن أنساب العرب وقبائلهم التى قطنت الأندلس فى عهد الدولة الأموية .

ولكنّ رسالة ابن غالب لم تشر ، فى أثناء تعدادها لقبائل العرب وتوزيعهم فى مختلف الأقاليم الأندلسية ، إلى ذكر جند بلج ، هذه الطبقة الشامية الخاصة التى سكنت الأندلس منذ سنة ١٢٥ هـ ، وتوزعت فى الأقاليم الجنوبية ، والتى نقلت إلى الأندلس التقاليد العسكرية السائدة فى الشام . وكان هؤلاء الجند يعيشون من إقطاعات منحتها لهم حكومة قرطبة ، ولهذا كانوا على استعداد لإجابة رغباتها والدفاع عنها كجندها الخاص ، وقد أقاموا فى المدن واستخدموا عمالاً يستثمرون لهم إقطاعاتهم التى كانوا يعيشون من وارداتها لأنهم لم يعتادوا حياة الزراع .

وكذلك نزعت هذه النزعة أسرٌ عربيةٌ أخرى تنحدر من رجال (الطالعة الأولى) أو البلديين ، فكانوا يفضّلون سكنى المدينة ، ورأينا معظم الأسر العربية الأرستقراطية تقطن مدن الأندلس الجنوبية ، بينما تُرِكَ إلى طبقة المولدين استثمار الأرض ضمن شروط حرة أو مقيدة .

وقد جذبت العاصمةُ قرطبة خلال القرن العاشر الميلادى كثيراً من الأسر العريقة لما فيها من مباهج الحياة المدنية .

ولم يكن الأمر كذلك فيما يخص العنصر البربرى . فقد فضّلت أقلية ضئيلة سكنى المدن . هذا ولا نملك مصادر كثيرة تتعلق بسكنى العناصر البربرية القادمة من إفريقية ، وليس لدينا إلا صفحة من كتاب ابن حزم وبعض الإشارات الموزعة فى تاريخ ابن خلدون . ويجب أن نلاحظ أنه إذا كانت العناصر العربية قد تمركزت منذ القرن التاسع للميلاد فى بلاد الأندلس ولم يأتها بعد ذلك إلا دفعات ضئيلة فإن الهجرة البربرية إلى الأندلس قد امتدت حتى عصر الموحدين . فالسياسة الإفريقية التى كان يتبعها الخليفة عبد الرحمن الناصر والخليفة الحكم المثانى والمنصور من بعدهما كانت تساعد هذه الهجرة وتحبذها ، إذ أن خطر الفاطميين جعل هؤلاء الخلفاء ينتبهون إلى تقوية مركزهم بالاعتماد على العناصر البربرية ، ولقد رغبوا

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ .

فيها لتقف فى وجه الأرستقراطية العربية من ناحية وفى وجه الأرستقراطية الصقلبية من ناحية أخرى .

نعم ؛ لقد جددت هذه الهجرة البربرية التى كثرت خلال آخر القرن العاشر الميلادى وأوائل القرن الحادى عشر — أقول لقد جددت عناصر الشعب الإسلامى ، إلا أنها أدّت إلى كثير من الفوضى والاضطراب وقادت الخلافة إلى الانهيار كما رأينا .

هذا ويشير المؤرخون العرب ولا سيما ابن العذارى إلى أن أكثر المستعمرات البربرية كانت قائمة فى الجبال ولا سيما فى الجبال الجنوبية كفحص البلوط وجبال كرمونا وغيرها وفى المرتفعات الغربية أيضاً .

وقد كانت قرطبة تضم بين سكانها عدداً من البرابرة ، ولكن أكثرهم كانوا موالى للأمراء الأمويين منذ سنين عديدة ، حتى إنهم قد نسوا ، بتأثير اتصالهم الطويل بالحياة المدنية ، كلّ علاقة تربطهم بأصلهم الإفريقى الجبلى .

ولم يكن الناصر أول خليفة قلد بعض البرابرة القاطنين قرطبة مناصب القيادة العسكرية والإدارة والقضاء ، بل رأينا عدداً منهم قد وصل إلى أمثال هذه المناصب العالية فى عهود أخرى تلت عهد الناصر . وهؤلاء البرابرة الذين تمصّروا هم الذين يشير إليهم ابن حزم فى الصفحة المخصصة لهم فى كتابه الأنساب ، ويؤكد لنا أصل الشاعر ابن دَرّاج القسطلى ويقول إنه بربرى ، وابن دراج هذا مع ابن صاعد البغدادى يمثلان البيئة الأدبية فى قرطبة فى أثناء عهد الخلافة أصدق تمثيل .

الصقالبة :

وهناك طبقة اجتماعية أخرى أخذت تلعب دوراً هامًّا فى حياة الأندلس السياسية والاجتماعية ، ولا سيما فى قرطبة ، هم أولئك الموالى المنحدرون من أصل أجنبى ، الذين كان يسميهم العرب الصقالبة . وهذه التسمية التى كانت تدل على الشعوب التى كانت تقطن الأراضى الممتدة بين الآستانة وبلاد المجر بدأت تأخذ معنى خاصًّا فى إسبانيا . ويظهر أنها كانت تشمل فى الأندلس الأسرى الذين كانت

تأسرهم الجيوش الجرمانية ثم تأتى بهم فتبيعهم إلى مسلمى إسبانيا . ولكن فى عصر ابن حوقل ، أى حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى ، كان يُقصَد بهذه التسمية جميع العبيد الأجانب الأوربيين الذين دخلوا فى عداد جنود الخليفة ، أو أنهم قُبلوا للقيام بخدمات فى البلاد . ويؤكد ابن حوقل قائلاً إنه عندما جال فى إسبانيا ، زمن الحَكَم الثانى ، كان أكثر الصقالبة الذين شاهدهم هناك لا ينحدرون فقط من شواطئ البحر الأسود ، بل هم أيضاً من المقاطعات الإسبانية الشمالية كمقاطعات جليقية Galice وكاتالون Catalogne أى (بلاد الإفرنج) ، ولومبارديا فى إيطاليا .

وفى الواقع ، فقد كان أكثرهم أسرى جَلَبهم رجالٌ من القرصان المغاربة أو الأندلسيين فى أثناء غاراتهم على الشواطئ الأوربية للبحر الأبيض المتوسط ، أما مَنْ كان مُعدًّا لحراسة الحرم فى البلاط ، فكان يشتريهم من فرنسا تجار مختصون من اليهود ، وكان لهم فى فيردان Verdun سوق خاصة بهم[1] . وكانوا على الأغلب صغار السن عند مجيئهم إلى الأندلس ، ولكن سرعان ما يتعلمون العربية واللغة الرومانية Roman ويصبحون مسلمين .

وقد أخذ عددهم فى الازدياد وبلغوا كما يقول المقرى فى عهد عبد الرحمن الثالث (٣٧٥٠) صقلبيًّا ثم ازدادوا إلى (٦٠٨٦) وارتفع هذا العدد حتى بلغ (١٣٧٥٠) واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً فى الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضى وأصبح غنيًّا . وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين ، وإذا صدّقنا ابن الأبار والمقرى علمنا أن أحدهم ويدعى حبيباً الصقلبى قد ألف كتاباً يعدد فيه مناقبهم بعنوان « كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » .

وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم وقاموا يلعبون دوراً سياسيًّا هامًّا ، وقد بدءوا فى عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية فى الدولة حتى إنهم قد

---

(١) هذه السوق يسميها دوزى « مصانع الخصيان Manufactures d'ennuques » .

قلدوا مناصب القيادة العسكرية وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرستقراطية العربية ويحاربها . وهكذا لم يتردد الخليفة الناصر فى أن يعهد إلى الصقلبى نجدة بقيادة حملة وجهها ضد ملك مقاطعة جليقية الإسبانى على الرغم مما أبدته حاشيته من استياء . وقد أظهر خليفة الناصر ،الحَكَمُ الثانى ، كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه ، لا سيما بعد أن أخذوا يمعنون فى التكبر والوقاحة ، وعندما توفى الحَكَم الثانى كان الصقالبة أسياد الموقف . ويشير ابن العذارى فى (البيان المغرب) إلى أن عدد الخصيان فى قصر الخليفة الحَكَم الثانى قد زاد على الألف . وكان حرس مدينة قرطبة بقيادة صقلبيين هما فائق النظامى وجؤذر .

ومجمل القول أن الدور الذى لعبه الصقالبة فى أثناء ضعف الخلافة الأموية كان سيئاً يشبه الدور الذى لعبه البرابرة ، إذ اشتركوا فى جميع المؤامرات التى كانت تحاك فى قرطبة ضد الكيان الأموى فى نهاية القرن العاشر الميلادى .

* * *

يضاف إلى هذه العناصر الشعبية عددٌ كبير من الإسبانيين الذين لم يعتنقوا الإسلام ، ومن بينهم المسيحيون واليهود . والمصادر العربية التى لدينا عن هاتين الطبقتين قليلة ، بل هى أقل مما نملكه من المصادر عن العناصر الأخرى التى ذكرناها ، ولكن هناك مصادر لاتينية ومصادر عبرانية قد كشفت النقاب عن كثير من الأمور المتعلقة بحياة هاتين الطبقتين [1] .

وقد بدأ ، منذ خمسين سنة ، اهتمام المؤرخين بالعناصر المسيحية التى كانت تقطن الأندلس ، وأخذ يسند إليها دور هام لعبته فى الحياة الاجتماعية الأموية .

---

(١) هناك مصدر لاتينى هام للمؤلف Simonet عن تاريخ مسيحيى الأندلس ، ويسميهم المؤلف باسم الـ Mozarabes هو : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1903
أما المصدر العبرانى فهو للمؤلف Groetz ترجمة Stenne وعنوانه :
Les Juifs d'Espagne, Paris, 1872
وقد أصبح هذا المرجع اليوم قديماً فى نظر المؤرخين .

ولكنّ بعض هذه الأبحاث التى كتبت فى هذا الصدد لا تخلو من التحزب ولا سيما عندما يولون هذه العناصر مكانة تفوق مكانتها والدور الذى لعبته .

ومهما يكن من أمر فإن عدد الذميين كان كبيراً وكانوا على جانب من الانتظام أكثر مما كانوا عليه فى أية بقعة إسلامية أخرى . وقد جرى بينهم وبين الفاتحين من الاختلاط والتأثير المتبادل الطويل ما لم يجر مثله فى أى صقع إسلامى آخر . وقد أظهر الإسلام تجاههم كثيراً من التساهل على خلاف ما عاملوا به العرب الفاتحين عندما زال سلطان الإسلام من تلك البلاد .

هذا وقد كانت هذه العناصر المسيحية مراكز للمقاومة الوطنية التى تحاك ضد الفاتحين ، ولئن كان المسلمون قد أخمدوا حركاتهم الثورية بشىء من القسوة أحياناً إلا أن الدافع إلى هذه القسوة كان سياسيًّا لا دينيًّا .

وكذلك فقد كان العنصر اليهودى كبيراً فى الدولة الأموية ، وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن القوط كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب ،ولهذا فقد قدّموا للعرب المساعدة ، وفى القرن العاشر الميلادى كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتهنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة . وقد تقلب بعضهم فى مناصب الدولة ولا سيما فى عهد الناصر ، أما فى عهد المرابطين والموحدين فقد نالهم العذاب .

* * *

هذا الاستعراض لمختلف العناصر الجنسية التى تألفت منها الدولة الأموية يبين لنا كيف كانت هذه الدولة مزيجاً متبايناً من عناصر تختلف فى العرق وفى الدين وفى الأهواء والغايات . وقد أدى هذا المزيج إلى أن تتصف الدولة بصفة خاصة تميزها عن باقى الدول الإسلامية . ولهذا كان الشاغل الأول الذى يشغل حكامها وخلفاءها هو أن يحققوا ، ضمن هذا المزيج ، وحدة تستند قبل كل شىء إلى القوة ، وأن يمنحوا دولتهم بناء متيناً يشبه بناء الخلافة الشرقية فى أوج مجدها أو بناء الدولة الفارسية أو البيزنطية ، آخذين بعين الاعتبار العناصر المختلفة التى يجب أن تبقى

دائماً فى خضوع تام للسلطة الحاكمة . وقد استطاع هؤلاء الحكام أن يحققوا الغاية التى يرمون إليها خلال قرن من الزمن يمكن اعتباره عصر الأندلس الذهبى . ولكن عندما بدأ يضعف السلطان الأموى وتظهر الرغبات الكامنة فى قلوب هذه العناصر المختلفة ، أخذ ذلك البناء الذى شاده عبد الرحمن الثالث بحزمه وقوته يتأرجح شيئاً فشيئاً ، حتى جاءت الفتنة إثر الفتنة ، وكان هذا الاختلاف الجنسى من أعظم الأسباب التى أزالت مُلْكَ الإسلام فى الأندلس .

obeikandl.com

الفصل السادس

شخصية الأندلسى

هل يمكننا أن نتكلم عن مجتمع أندلسى ؟ للإجابة عن هذا السؤال يجب ألا ننسى ما قلناه سابقاً عن العناصر المختلفة التى تؤلف الشعب الأندلسى ، وعلى رغم اختلافها وتعددها الظاهر فقد تركت فى الأندلسى صفات مشتركة استطاعت أن تمنحه شخصيةً خاصةً به ؛ فالطبيعة نفسها فرضت سلطانها فى تكوين هذه الشخصية ، والاختلاف العنصرى نفسه لعب أيضاً دوره فى تكوين هذه الشخصية ، إذ — سواء أكان الأندلسى عربياً أم بربرياً ، أم صقلبياً ، أم إسبانياً محافظاً على دينه — كنت تراه يتميز بصفات لا تجدها عند هذه العناصر التى بقيت خارجة عن محيط الأندلس . ولكن هذه الشخصية لم تكن لتستدعى أن تمحو كل الصفات الأخرى التى تميز العربى عن البربرى وعن الصقلبى وعن الإسبانى ، كما يريد أن يعتقد به المستشرق هنرى به رس[1] . فالشخصية الأندلسية إذاً موجودة ضمن هذا الاختلاف العنصرى ومما لاشك فيه أن ظواهر هذا الاختلاف تقل عندما ننظر إلى الشعر الأندلسى من خلال الطبقات التى يتألف منها ، فالطبقة الأرستقراطية مثلاً أو طبقة الحكام قد تجمعها صفات واحدة على رغم اختلاف العناصر الجنسية التى تتألف منها . وكذلك الطبقات الأخرى المتوسطة أو الدنيا التى تشمل سائر غوغاء السوق . ومن المفيد أن نشير إلى أن لسان الدين بن الخطيب قد نظر إلى الشعب الأندلسى هذه النظرة أى من خلال الطبقات التى يتألف منها ولم يهتم كثيراً بالفوارق العنصرية ، وقد عدّ المستعربين أى الإسبانيين الذين حافظوا على دينهم والذين نسميهم بـ (Mozarabes) عدّهم من طبقة الأشراف . ونجد تقسيمه هذا فى كتاب « أعمال الأعلام » عند كلامه على

(١) انظر : Henri Pérès: *la poésie andalouse en arabe classique au Xe siècle*, p. 16-20.

حكم هشام المؤيد[١].

بعد هذه الملاحظات يمكننا أن نتكلم على صفات الأندلسى ، وقد أشار إليها كثير من المؤلفين العرب :

فابن غالب فى رسالته « فرحة الأنفس » التى يذكرها المقرى[٢] يصف لنا الأندلسى رجلا مهتماً بلباسه وهندامه وطعامه محباً للهو والغناء والموسيقى ، ونجده أيضاً ، إلى جانب هذه الحياة اللاهية ، حسن التدبير محباً للعلوم والفلسفة والعدالة . نعم إن الذى لا شك فيه أن الأندلسى قد تمتع بصفات تنحدر من باخوس (Bacchus) إله الخمر واللهو كما تنحدر من أبولون (Apollon) إله الفن والشعر ، ولهذا فليس عجيباً أن نراه محباً للفن شاعراً ولاهياً عابثاً ثم بعد هذا منصرفاً إلى التفقه فى العلوم والتشريع والدين والفلسفة بتأثير الدافع الإسلامى وحب التأمل وفهم أسرار الحياة . وقد عدّ ابن غالب من فضائل الأندلسيين اختراعهم للموشحات التى استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها .

هذا وابن غالب لا يكتفى بذلك بل يحاول أن يجد بين الأندلسيين والشعوب الأخرى بعض المشابهات فيقول : « أهل الأندلس عرب فى الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ؛ هنديون فى إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم ، يونانيون فى استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الفراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة »[٣] .

مما لا شك فيه أن هذه الأقوال التى تصف الأندلسى تميزه بأمور لا نجدها عند عربىّ البادية ، ولا شك فى أن للطبيعة الأندلسية أثرها فى صقل هذه الشخصية

---

(١) نشر المستشرق ليفى بروفنسال هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ فى مدينة الرباط .
(٢) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ — ٧٦٤ .
(٣) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ .

وجعلها تتلاءم مع الأرض والمحيط ، ولكن لا يجب أن نرى فيها ما يحمل على الاعتقاد مع هنرى به رس أن الأندلسى شخصية قطعت صلاتها بأصلها وجنسها ، وإنما هى شخصية عرفت التلاؤم مع المحيط بل عرفت أن تعيش فيه . وإذا كنا نراها بعيدة فى نمط عيشها عن نمط عيش البدوىّ فما ذلك إلا لاختلاف الحياتين . ولكنّ وسائل التعبير بقيت هى هى ، وبقى الأندلسى ينظر إلى عبارة الشرق وأسلوب المشارقة وحياتهم الفكرية نظرة مثالية فيها كثير من الشوق وكثير من العز وكثير من الرغبة فى عدم الابتعاد عن تقاليدهم المرسومة كما سنرى .

هذا ونرى ابن حزم يحذو حذو ابن غالب فى وصف الأندلسى فيجد فيه من المزايا ما تقربه من شعوب أخرى فيقول : « إن أهل الأندلس صينيون فى إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركيّون فى معاناة الحروب ومعالجات آلاتها والنظر فى مهماتها »[1].

وإذا كانت هذه المقارنات توحى إلى نفوسنا ببعض الفكر الصحيحة عن صفات الأندلسى فإنها لا تصل إلى تعريفه تعريفاً صادقاً . ونشعر حقّاً أن اللعب بالألفاظ قد يطول ، إذ أنها تستند إلى ضروب البيان والبلاغة والمدح أكثر من استنادها إلى علم الاجتماع . والأدب العربى حافل بأنواع هذه المشابهات وهذه الأوصاف التى لا يتردد الأدباء فى منحها لفريق دون فريق ، وقبيلة دون أخرى أو شخص مفضل دون آخر

هذا وقد وصف المقرى أيضاً أهل الأندلس بصفات خاصة وامتدح ظرفهم وأدبهم وقال إن فيهم صفات متأصلة تميزهم عن غيرهم ويتناقلها أولادهم وعلماؤهم وكبراؤهم . لامراء فى أنه من العبث أن نحاول فى كلمات محدودة تعريف الأندلسى المسلم ، ولكن جميع الصفات التى وردت فى الأقوال السابقة لا يمكن إهمالها

---

(١) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ . فى الصفحات التالية من نفح الطيب نجد نص رسالة لابن حزم كتبها رداً على أبى الحسن بن محمد بن الربيب التميمى القيروانى الذى ذكر تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم وسير ملوكهم فأجابه ابن حزم داحضاً مزاعمه ومشيراً إلى من ألف فى تخليد أخبار علماء الأندلس ومآثرهم فى رسالة قيمة تذكر لنا أسماء طائفة من العلماء مع مؤلفاتهم وتطلعنا على مظهر من مظاهر الحركة العلمية والأدبية فى ذلك العصر .

عندما نرغب فى تعريفه ، وهى تثبت أن الأندلسى ، فى نظر المؤلفين العرب ، لم يكن عربيًّا صرفاً ؛ إنه عربى وشىء آخر اكتسبه من الحياة الجديدة التى عاشها ؛ ولذلك يحاول هؤلاء المؤلفون أن يجدوا بينه وبين الشعوب الأخرى بعض الصفات التى تقربه منهم ، فالاختلاط والحياة الجديدة والأصل العربى ، بل الحياة العربية التى تملأ مخيلته هى عناصر ثلاثة كوّنت الأندلسى المسلم فى الجزيرة الإسبانية . نعم إنه أندلسى ولكن عند قراءة آثاره ولا سيما شعره لا نستطيع أن ننكر أصله العربى وصفته الشرقية . فقد بقى هذا الأندلسى شرقيًّا فى تفكيره شرقيًّا فى أسلوب تعبيره إلى جانب بعض المميزات التى لا يمكن الفرار منها والتى هى ناجمة عن اختلاف المحيط الجغرافى والإنسانى . لهذا نحن لا نستطيع أن نقول مع هنرى به رس إن الأندلسى المسلم هو امتداد عنصرى للشعوب الأصلية التى سكنت الجزيرة الإسبانية ، إن مثل هذا الحكم الجازم لا نستطيع أن نوافق المستشرق عليه ، ولا تستطيع الآثار نفسها أن توافقه على ما زعم . بقى علينا أن نعلم ما إذا كان هذا الأدب هو ظل للأدب الشرقى ، وهذا ما سنراه فى الفصول المقبلة ، وسنرى أنه ظل لشرق وحقيقة لأندلس .

الفصل السابع

سمات العصر الأندلسى فى السياسة والاجتماع والفكر

يتصف العصر الأندلسى بصفتين متناقضتين هما : التعصب والاستبداد من ناحية ، والتساهل والحرية من ناحية أخرى .

أما التعصب فلم يكن على درجة واحدة وقوة واحدة فى مختلف الأدوار التى مر بها هذا العصر . ولقد كان لوجود المسلمين فى بقعة تتاخمها النصرانية ويناصبهم أهلها العداء أثر كبير فى إذكاء الشعور الدينى فى نفوسهم ، وقد ساعد الفقهاء فى دعم هذا الشعور وتقويته لما لهم من نفوذ دينى .

ولكن هذا التعصب الذى كان خيراً فى سبيل دعم القوة الإسلامية ضد أعدائها ، كان فى الوقت نفسه شرًّا على الحرية الفكرية عند المسلمين أنفسهم . وذلك أن الفقهاء ، حرصاً منهم على سيادتهم ، كانوا يثيرون العامة فى كثير من الأوقات على المفكرين والفلاسفة ومَنْ نظروا فى أمور الدين والشرع والسنة ، ولا يحجمون عن أن يطلبوا من الخلفاء أنفسهم أن يمعنوا فى التضييق على رجال الفكر . ولهذا كنت ترى عامة الشعب ، تحت تأثير دعوة الفقهاء ، ساخطين على الفلاسفة الذين كان ينظر إليهم أحياناً كزنادقة وملحدين . وكان من الطبيعى أن تروج الدسائس والسعايات فى مثل هذا الجو ، وأن يلقى المفكرون العنت والشر فيعمد الخلفاء أحياناً فى سبيل التودد إلى الفقهاء والعامة إلى حرق كتبهم واضطهادهم . فقد نُكِب ابن رشد وأصحابه ونُفِى ابن هانئ عن الأندلس ، وامتدت النقمة إلى الوزراء والقضاة فنالهم السجن والاضطهاد كابن زيدون وابن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

ولئن كانت الصفة الغالبة هى التعصب ؛ لقد كانت تمر فترات يأتى فيها ملوك عادلون ينتصرون لحرية الفكر دون أن يثيروا الفقهاء كما كان الشأن زمن الموحدين حيث انتعشت الفلسفة وقلت الوشايات ذات الصبغة الدينية .

إلى جانب هذا التعصب الدينى الذى كان يكم الأفواه ، كنت ترى حياة الدعة والتساهل منتشرة ، فقد كانت الحياة الخاصة متعة متصلة الحلقات ، وهنا تبدو الحرية ما دامت لا تتصل بأمور السياسة والدين والحكم ولا تتصدى للمصالح الذاتية ، ولهذا كنت ترى الأندلسى يهتك دون وازع ، وقد انغمس الشعراء والكتاب فى حمأة الدعارة ونطقت ألسنتهم بأفحش الأقوال . وامتدت هذه الحرية إلى الملوك فرأيتهم يرخون العنان للهوهم وطربهم وللهو الناس وطربهم ، ما دام هذا اللهو وهذا الطرب لا يمسان الدين الذى له حرمته فى النفوس . فانتشرت الخلاعة وعمت مجالس اللهو وساءت الأخلاق وكان ضرر هذا التسامح أبلغ أثراً من ضرر التعصب ، إذ قد أفسد النفوس فاستسلمت للراحة والدعة وهان عليها أن تقبل الصدمات والذل ولا تثور لكرامتها فبقيت خانعة باكية معولة تحن إلى مجد آفل وعز سليب .

ومن أمثلة هذه المجالس اللاهية ما يرويه لنا ابن خاقان فى المطمح عن مجلس مُزِج فيه الجد بالهزل قد أقامه الوزير أبو عامر بن شُهَيد[1] فى ليلة سبع وعشرين من رمضان فى هذه الليلة المباركة التى يجب أن ينقطع فيها الإنسان إلى التهجد والعبادة :

قال الفتح بن خاقان : « وأخبرنى الوزير أبو الحسين بن سراج وهو بمنزل الوزير أبى عامر بن شُهيد ، وكان من البلاغة فى مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة فى أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه ، وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يخليه عن نثر درره وأزهاره ، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان فى لُمَّةٍ من إخوانه ، وأئمة ساوانه ، وقد حفُّوا به ليقتطفوا نخب أدبه ، وهو يخلط لهم الجد بهزل ، ولا يفرط من انبساط مشهر ولا انقباض جَزْل ، إذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها مِنْ جواريها ، من يسترها ويواريها ، وهى ترتاد موضعاً لمناجاة ربها وتبتغى منزلا لاستغفار ذنبها ، وهى متنقبة ، خائفة وممن يرقبها مترقبة ، وأمامها طفل لها كأنه

---

(١) من شعراء الدولة العامرية ، ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ .

غصن آس ، أو ظبي يمرح فى كناس ، فلما وقعت عينها على أبى عامر ولَّتْ سريعة ، وتولَّت مَرُوعة ، خيفةَ أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها ، قال قولا فضحها به وشهرها :

وناظِرَةٍ تحتَ طىِّ القناع ... دَعَاها إلى الله للخير داعِ
سَعَتْ خفيةً تَبْتَغِى مَنْزِلاً ... لِوَصْلِ التَّبَتُّلِ والإنقطاع
وجالتْ بِمَوْضِعنا جَوْلةً ... فحلَّ الربيعُ بتلكَ البِقاع
أَتَتْنا تَبَخْتَرُ فى مَشْيِها ... فحلَّتْ بوادٍ كثيرِ السِّباع
وَرِيعتْ حِذاراً على طِفْلِها ... فنادَيْتُ يا هٰذهِ لا تُراعِى
غَزَالُكِ تَفْرَقُ منه الليوثُ ... وتَنْصاع منه كُماةُ المَصَاع
فَوَلَّتْ وللِمسْكِ مِنْ ذَيْلِها ... على الأَرض خَطٌّ كَظَهْرِ الشُّجاع[1]

وهذا أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية ونحاتها ، كان رجلا مستسلماً إلى الصبابة ، كما يقول الفتح بن خاقان فى قلائده ، لا يحفل بملام ولا ينتقل عن المدام ، فلنسمعه يتغزل بهذه الأبيات الرقيقة :

هَبَّ النسيمُ مع العَشِىِّ فَشَاقَنى ... إِذْ كانَ مِن جهةِ الحبيبِ هُبُوبُهُ
قَدْ كنتُ وَدَّعْتُ الصِّبا بوَدَاعِهِ ... وأَخُو الصَّبابَةِ لا تَفِيقُ نُدُوبُه
فَدَعا الهَوَى لى دَعْوَةً لم أَعْصِها ... والصَّبُّ رَاحةُ قلبِهِ تَعْذِيبُه
لَوْلم أُجِبْ داعِى الهَوَى وَعَصَيْتُه ... لَغَدَتْ جُفُونِى بالدُّموع تُجِيبُه

ومن مظاهر هذه الحياة اللاهية أيضاً علاقة الشعراء وغير الشعراء بالمسيحيين والمسيحيات من سكان الأندلس ، وعندما يحدثنا الشعراء عن هذه العلاقات ،

(١) مطمح الأنفس ص ١٩ – ٢٠ .

لا يكتفون بتصوير الجانب اللاهى من الحياة الأندلسية وإنما يقدّمون لنا معلومات ذات قيمة عن حياة هؤلاء المستعربين Mozarapes وعن لباسهم وأزيائهم ، وعن الحرية التى كانوا يتمتعون بها فى قيامهم بشعائرهم الدينية وعن اختلاط المسلمين الأندلسيين بهم اختلاطاً كبيراً : فقد ذكر ابن خاقان فى المطمح[1] « أن أبا عامر بن شُهَيْد قد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فُرِشَتْ بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستئناس ، وقَرْعُ النواقيس يُبهج سمعُهْ وبرقُ الحُمَيَّا يَسْرَحُ لمعُهْ ، والقَسُّ قد بَرَز فى عَبدَة المسيح ، متوشّحاً بالزنانير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطّرَحوا النِّعَمَ كلَّ اطّراح :

لا يَعْمَدُونَ إلى ماءٍ بآنِيةٍ إلا اغترافاً من الغُدرانِ بالرَّاح

وأقام بينهم يرشف حُمَيَّا ، كأنما يرشف من شَفَة لميَّا ؛ وهى تَنْفح له بأطيب عَرْف ، كلما رشَفَ أعذَبَ رَشْف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل ، فقال :

وَلَرُبَّ حانٍ قد شَمَمْتُ بِدَيْرِهِ خَمْرَ الصبا مُزِجَتْ بِصِرْف عَصِيرِهِ
فى فتيةٍ جَعَلوا السرورَ شِعارَهم متصاغرينَ تخشُّعاً لِكَبِيره
والقَسُّ مما شاءَ طولَ مُقَامِنا يدعُو بِعُود حولنا بَزبُورِه
يَهْدِى لنا بالرَّاحِ كلَّ مُصَفَّرٍ كالخَشْفِ خَفَّرَه التِماحُ خَفِيره
يتناولُ الظرفاء فيه وشُرْبُهم أسلافُهم والأَكلُ من خِنْزِيرِه

هذه الأبيات الصريحة التى لا يستبعد أن تكون صراحتها مقصودة تشير إلى أكثر مما أشار إليه المستشرقون عندما ذكروها فى مؤلفاتهم . ورسالة ابن عبدون[2]

---

(١) ص ٢١ .

(٢) تبحث هذه الرسالة عن الحياة المدنية والمهن فى إشبيلية فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى ، نشرها المستشرق ليڤى بروفنسال سنة ١٩٣٤ فى الجريدة الآسيوية (عدد : نيسان — حزيران) .

تثبت لنا أن هناك امتزاجاً شديداً بين الأندلسيين والمسيحيين المستعربين مما يؤيد أن الصورة التى يقدمها أبو عامر بن شهيد فى الأبيات السابقة ليست على صراحتها كثيرة المبالغة .

هذا عدا مشاهد الحب التى كان يصورها الشعراء والتى كانت ترسم لنا علاقات الأندلسيين بالمسيحيات والمستعربات ، وهى علاقات ما كانت لتقتصر على الطبقات العليا بل نجدها فى مختلف طبقات الشعب الأندلسى ولا سيما الطبقات الوسطى والدنيا . فالشاعر الرمادى[1] يشير إلى نوع من العلاقات الماجنة بشىء من الصراحة أحياناً ، فيقول مخاطباً الساقى النصرانى :

أَدِرْها مثلَ ريقِكَ ثم صَلِّبْ كعادتِكم على وَهْمِى وَكَاسى
فَقَضَّى ما أَمرتُ به اجتلاباً لمسرورى وزادَ خُنُوعَ راسى[2]

ويقول فى مكان آخر :

قَبَّلْتُهُ قُدَّامَ قِسِّيسه شَرِبْتُ كاساتٍ بتقديسِه
يَقْرَعُ قلبى عند ذِكْرِى له مِن فَرْطِ شَوْقى قرعَ ناقوسه[3]

* * *

وإذا كان الشعراء قد تعبروا فى حبهم وذكر علاقاتهم بالأوساط المسيحية فهناك آخرون قد أظهروا لنا وجهاً عفيفاً لهذا الاختلاط ، كما فعل أبو عبد الله بن الحداد[4] أحد شعراء بلاط المرية زمن المعتصم ابن صمادح ، وإذا ما تلونا أشعاره التى نجدها فى الذخيرة والتى تصور لنا حبه لأولئك النصرانيات كحبه لنُوَيْرة ،

---

(١) هو أبو عمر يوسف بن هارون المعروف بالرمادى ، شاعر قرطبى مجيد ، سريع القول عاصر المتنبى ، توفى سنة ٤٠٣ هـ .

(٢) المطمح ص ٨٠ . نفح الطيب ج ٥ ص ١٨٠ (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) .

(٣) المطمح ص ٨٣ .

(٤) توفى هذا الشاعر سنة ٤٨٠ هـ .

أقول إذا تلونا هذه الأشعار شعرنا بنفحة عذرية بدا مثلها فيما بعد على أشعار التروبادور . وأشعار ابن الحداد لها فائدة أخرى فهى تمنحنا صورة واضحة عن طريقة إحياء المسيحيين والمسيحيات لشعائرهم الدينية كما كانت معروفة عندهم .

ولعلنا ، ونحن نرغب أن نعرض وجهاً من وجوه حياة الأندلس اللاهية التى امتاز بها العصر ، قد استطعنا أن نبين لكم مدى الاختلاط الذى نشأ بين الأندلسيين المسلمين والإسبانيات اللواتى حافظن على دينهن ، ولاشك أن الأثر الذى تركه هذا الاختلاط فى الشعر والأدب لا يمكن نكرانه .

• • •

والآن يجدر بنا ، كخاتمة لهذا الباب ، أن نلم بوصف مجمل لإدارة المجتمع الأندلسى والحياة العقلية فيه .

إدارة المجتمع الأندلسى :

من الكتب القيمة التى تصف الحياة الاجتماعية الأندلسية ومنظماتها السياسية والإدارية والقضائية كتاب المستشرق ليفى بروفنسال المسمى (إسبانيا المسلمة فى القرن العاشر الميلادى)[1] . لقد خصّ المستشرق بحثه فى هذا الكتاب بالقرن العاشر الميلادى إلا أن ما جاء فيه يمكن أن ينطبق على سائر العصور التى مرّت بالأندلس بعد السنين الأولى من الفتح ؛ فما هى أبرز صفات هذه الحياة الاجتماعية التى كانت مسرحاً لحياة عقلية خصبة ؟

كانت السلطة العليا فى الأندلس فى مختلف العهود السياسية التى مرت بها بيد الأمير أو الخليفة . وكان يساعده فى أمور المالية والأعمال الخارجية ورفع المظالم (القضاء) والإدارة الحربية أربعة وزراء ، وكان له مستشاران يسميان بالوزيرين ، وكثيراً ما كان يطلق على كل منهما اسم ذى الوزارتين ، وكان لكل مصلحة فى الدولة كتاب مختصون بها ، ككتّاب الرسائل وكتاب الذمام الذين ينظرون فى شئون أهل الذمة . وكان يتوسط نقل الأوامر بين الخليفة والوزراء رجل يسمى

---

(١) أشرنا إليه سابقاً ، واسمه بالفرنسية *L'Espagne musulmane au Xe. siècle* .

بالحاجب صارت وظيفته فيما بعد أعظم من وظيفة الوزير ، وقد استبد بعض الحجّاب بالخلفاء كما فعل الحاجب المنصور . وكثيراً ما كان يتسابق ملوك الطوائف إلى أخذ هذا اللقب ، وكان فى كل مدينة قاض وكان قاضى الجماعة أى قاضى القضاة يقيم فى قرطبة ، ولا يشغل مناصب القضاة سوى أكابر العلماء والفقهاء .

وكان إلى جانب وظيفة القضاء وظيفة العدالة ويقوم صاحبها بتسجيل العقود والاتفاقات ، وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى رئيس الشرطة ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية . ويقوم المحتسب على شئون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراقبة الأسواق ، ومن خصائصه مطاردة المنكرات والتأديب والعمل على احترام الأحكام الشرعية وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات . وكان للأندلس فى عهدها الزاهر أسطول قوى كان يسمى قائده بأمير الماء . ووضعت أنظمة للجيش متأثرة بأنظمة الإفرنج وبضرورات الحياة التى كانت تحيط بالأندلسيين . وكان إلى جانب الطبقة الحاكمة طبقة الفقهاء التى كان لها نفوذ واسع حاولت كثيراً أن تستغله فى السياسة وتدبير الملك ، وفى القضاء على الروح العلمية والثقافية بل كثيراً ما دبرت الثورات لقلب الحكم كما أشرنا إلى ذلك سابقاً[1] .

وقد ساعدت تنحية العرب عن الجيش فى زمن عبد الرحمن الداخل على وجود طبقة الجنود المتطوعة من بربر وصقلبيين ، فقامت بنصيبها الكبير من الفتن ، بل إن طبقة الخصيان والموالى أصبحت فى عهود ضعف الدولة تتصرف فى شئون الخلافة والملك كما ذكرنا . وقد ضعفت الروح الحربية عند العرب كما ضعف الروح الاجتماعى وتدهورت الأخلاق وساعد الغنى وخصب البلاد على انصراف الناس إلى اللهو والملذات كما قلنا ، وظهر فيهم شعور الأثرة حتى استنجد المسلمون بالفرنجة أعدائهم . ونشأمن بين العرب أنفسهم طبقة الزراع والتجار والصناع الذين قاموا بنصيبهم فى رقى الأندلس وحضارتها ، أضف إليهم طبقة الموالى المؤلفة من الإسبانيين وغيرهم الذين دخلوا فى الإسلام ، وطبقة اليهود الذين كانوا منتشرين فى إسبانيا .

---

(١) انظر ص ٢٧ و ٤٧ من هذا الكتاب .

ويجب ألا ننسى عاملا اجتماعيًّا هامًّا ساعد على تقويض الأندلس وضعف الروح الحربية فى الأندلسيين وميلهم إلى الترف وهو تزوجهم أو تسرّيهم بالقوطيات (الإسبانيات) اللاتى أضعفن روح العروبة فى أبنائهن كما بدا لنا ذلك فى أثناء البحث عن عناصر الشعب الأندلسى

وقد انتشرت فى الأندلس روح الفتوة التى سادت بالوقت نفسه لدى الإسبانيين والغربيين قاطبة وكانت لها قوانين متبعة وأصول مقررة إذا خالفها الفارس أخلّ بشرفه .

وقد بقيت الفروسية الأندلسية عصوراً تجذب الأنظار إليها باكتمالها وروعتها إلا أنها لم تستطع أن تُذْكى فى نفوس أكثر العرب روح الحرب لانصرافهم عنها إلى اللهو والرخاء ، وظلت على الأكثر مظهراً من مظاهر المباهج والتسامح . وقد كثر الشغف بالفروسية فى حُكْم دولة بنى الأحمر وكانت مبارياتها وحفلاتها من أجمل المباهج العامة التى تجرى فى غرناطة . وكثيراً ما اجتمع فيها الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ويسوُّون منازعاتهم . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات فى الحسن والأناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من المحافل العامة سافرات ، ويخلعن عليها جوًّا من السحر والروعة ينم عما كن يتمتعن به من الحرية[1] .

---

(١) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٣١ .

الحضارة الأندلسية والحياة الفكرية

عرفت الحضارة الأندلسية تطورات مختلفة ، متبعة تطور تاريخ الأندلس السياسى . فقد وصلت هذه الحضارة إلى ذروة القوة فى عهد الخلافة الأموية أيام حكم عبد الرحمن الناصر وولده الحكم ولكنها لم تصل إلى ذروة نضجها الفكرى ، ولما انهارت الخلافة الأموية وسادت الفوضى أرجاء الأندلس فى عهد الفتنة ذوت الحضارة الأندلسية وخبت مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت على رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية فى قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها وسطعت شمس الأدب والفكر ، وعرفت الأندلس فى هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها أمثال الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ والمؤرخ ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ والشاعر ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ والشاعر الأديب ابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وغيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء الذين ذكرهم ابن خاقان فى « قلائد العقيان » والمقرى فى « نفح الطيب » . بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا — كما قدمنا — فى طليعة الأدباء والشعراء ، كالعالم عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ، والمعتضد والمعتمد صاحبى إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية .

ولكن هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ما عتمت أن توقفت عقب تضعضع دول الطوائف واستيلاء المرابطين على الأندلس سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م ، فقد كان هؤلاء المرابطون ، كما ذكرنا [١] ، شديدى التعصب ، قساة غلاظاً ، ألفوا الحرب والخشونة فلم تجد دولة الفكر والأدب فى ظلهم مرتعاً خصباً . نعم لقد تألقت فى عهدهم القصير بعض الأسماء اللامعة أمثال الطبيب أبى القاسم خلف بن عباس القرطبى [٢] والفيلسوف ابن باجة [٣] والفتح بن خاقان [٤] وابن بسام [٥] صاحب

---

(١) انظر ص٢٦ ، ٣٢ من هذا الكتاب .
(٢) توفى سنة ٥١٦ هـ .
(٣) توفى سنة ٥٢٣ هـ .
(٤) توفى سنة ٥٣٥ هـ .
(٥) توفى سنة ٥٤٢ هـ .

كتاب « الذخيرة » ، وابن قزمان[1] صاحب الأزجال الشهيرة ، ولكن ظهورهم وأضرابهم فى هذه الفترة لم يكن إلا امتداداً للنهضة الفكرية التى ازدهرت فى عهد ملوك الطوائف .

ثم جاءت دولة الموحدين ، فانتعشت الحضارة الأندلسية ونشطت حركة التفكير . لقد نشأ الموحدون كالمرابطين فى مهاد الخشونة والتقشف ولكنهم كانوا أوسع أفقاً . وكان مؤسس دولتهم المهدى بن تومرت من أئمة التفكير الدينى . وأظهر خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث بعد أن قيدت فى عهد المرابطين وأفرج عن كتب الغزالى وغيره من مفكرى المشرق . وكانت قد كوفحت ومنعت فى أيامهم بالمغرب والأندلس . وفى هذه الفترة ، أى فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغت النهضة الفكرية فى الأندلس ذروة نضجها وظهرت طائفة من أقطاب العلم والأدب . وفى طليعتهم أبو جعفر بن الطفيل الإشبيلى صاحب رسالة « حى بن يقظان » المتوفى سنة ٥٧١ هـ ، والفيلسوف ابن رشد القرطبى المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ، والرئيس موسى بن ميمون القرطبى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ وكان يهودياً وهو من أشهر الأطباء والفلاسفة فى عصره .

وقد كان ابن رشد أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه فى ذلك العصر ، ومن أهم آثاره شروحه لفلسفة أرسطو فى المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية فى العصور الوسطى . وغدت شروح ابن رشد أساساً لكثير من المباحث الفلسفية التى ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربى . وكانت الأندلس ، بفضل ابن رشد وأمثاله من الفلاسفة والعلماء العرب ، عاملا هاماً فى رقى أوربا . فعن طريق الأندلس بالدرجة الأولى اطلع الأوربيون على الفلسفة والعلوم اليونانية القديمة .

وظهر فى تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، عدد من أعلام الشعر والأدب مثل أبى القاسم خلف بن بشكوال القرطبى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وهو مؤلف كتاب الصلة ، وابن بدرون الإشبيلى المتوفى فى فاتحة القرن السابع ، وهو شارح

---

(١) توفى سنة ٥٥٥ هـ .

قصيدة ابن عبدون الشهيرة فى رثاء بنى الأفطس .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ، ومقصد الطلاب من كل فج ، وفيها المكتبات التى تضم الكتب النفيسة والتآليف النادرة فى مختلف العلوم والفنون . وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون وأقيمت فى عهدهم طائفة من المساجد والأبنية الفخمة التى تمتاز بجمالها الفنى .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية ، قام المتغلبون يتنافسون فى اجتناء أسلاب الدولة الذاهبة ، وبدأت قواعد الأندلس تسقط تباعاً فى يد النصارى ، وشغلت الأندلس بمحنتها ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ومدافعة المغيرين ، فانكمشت فنون السلم ، واضطربت دولة التفكير والأدب ، ومع ذلك فقد ظلت تمتاز بكثير من نواحى القوة والنضج ، وقد أثرت المحنة فى نفوس الشعراء فأذكت عواطفهم بشعر اللوعة وبعثت إلينا بطائفة من المراثى التى ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعتها [١].

وغادر الأندلس فى تلك الفترة كثير من الكتّاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل فى جو أكثر استقراراً وطمأنينة ؛ مثل الشيخ محيى الدين بن العربى شيخ المتصوفين الشهير [٢] ، وابن البيطار المالقى [٣] وابن الأبار القضاعى [٤]

---

(١) من هذه المراثى مرثية أبى البقاء صالح بن شريف الرندى ، وكان أديباً وشاعراً جزلا من أهالى رندة عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى وعاصر الفتنة التى تمخضت عن قيام مملكة غرناطة ، ولا نعرف كثيراً عن حياته .

(٢) ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى الشرق وبقى فيه حتى توفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ .

(٣) العالم النباتى والطبيب المشهور ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى غادر الأندلس فى شبابه وطاف بأنحاء المغرب وقدم إلى مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، ودرس عليه ابن أبى أصيبعة وتوفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ .

(٤) ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز فى الفقه واللغة والنثر والنظم ، تولى الكتابة للأمير أبى جميل زيان أمير بلنسية ، ولما سقطت بلنسية بيد النصارى نزح إلى تونس وتوفى قتيلا بتحريض خصومه سنة ٦٥٩ هـ . وكتب ابن الأبار فى الأدب والتاريخ ومن آثاره تكملة كتاب لابن بشكوال .

وابن سعيد الأندلسى[١] . وكثيرون غيرهم ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب .

وانجلت الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية فى يد النصارى ، وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت فى الركن الجنوبى الغربى للمملكة الإسلامية القديمة . فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى برزت من غمر الفوضى وتأسست على يد محمد بن الأحمر زعيم بنى نصر كما تقدم ذكره[٢] وإليها هرعت معظم الأسر الأندلسية القديمة وغدت ، خلال مدة تزيد على القرنين ، مستودع تراث الأندلس القومى والسياسى ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى .

وفى ظل مملكة غرناطة أخذت الحركة الفكرية فى الاستقرار وبدأت الأندلس حياتها الجديدة وآنست جوًّا من الطمأنينة والهدوء . وكان ملوك غرناطة من حماة الآداب والعلوم ، وسطع بلاط دولة بنى الأحمر بتقاليده الأدبية الزاهرة على غرار قصور ملوك الطوائف .

ويجب أن نلاحظ أن الحركة الفكرية الأندلسية فى عصر بنى الأحمر تكاد تنحصر فى النواحى الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصابها الركود ، وقلما نجد فى هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو غيرها من العلوم المحضة التى ازدهرت من قبل بالأندلس[٣] .

---

(١) أديب ورحالة ولد فى غرناطة سنة ٦١٠ هـ وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ وله كتاب « المغرب فى حلى المغرب » .

(٢) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب .

(٣) من بين من اشتهر من العلماء والأدباء والشعراء فى هذه الفترة :

— الكاتب الوزير ابن الحكيم أبو عبد الله محمد بن يحيى اللخمى الرندى ولد برندة سنة ٦٦٠ هـ .

— وأبو حيان الغرناطى ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وتوفى بمصر سنة ٧٤٥ هـ وكان بارعاً فى اللغة والأدب ونظم الموشحات .

— ولسان الدين بن الخطيب قطب الحركة الأدبية فى مملكة غرناطة ولد فى لوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ وأخباره نجدها فى نفح الطيب فى مجلدين ضخمين .

— ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب تزعم من بعده الحركة الأدبية فى الأندلس . ولد سنة ٧٣٣ هـ وقتل سنة ٧٩٧ هـ .

هذا عرض تاريخى لأهم مظاهر الحياة العقلية فى بلاد الأندلس ، والناظر إليها يرى أن العقلية العربية فى الأندلس قد أثر فيها الاختلاط العنصرى تأثيراً كبيراً ، إذ قد صنع الأمويون فى الغرب الإسلامى صنع العباسيين مع الفرس وقربوا القوط إليهم كما ذكرنا فكان من أثر هذا الاختلاط امتزاج العقلية الآرية بالعقلية السامية فنضجت العقلية العربية وزهت الآداب وازدهرت الحضارة واقتبس الإسبانيون ثقافة العرب لأنهم كانوا دونهم ثقافة ، ودخلوا فى دينهم وتعلموا لغتهم وأدبهم وهجروا اللاتينية وأعرضوا عن كتب المسيحية ، حتى أصبح رجال الدين الإسبان يشكون من انصراف الإسبان المسيحيين عن اللاتينية إلى اللغة العربية ، ويأسفون على حماستهم الشديدة للغة العرب وعلى ضياع اللاتينية بين المسيحيين الذين يقبلون على العربية والشعر العربى ويدرسون كتابات متكلمى الإسلام وفقهائه لا ليفندوها بل لكى يكتبوا العربية فى صحة وإتقان[1] .

وقد رأينا كيف شيد الأندلسيون المدارس حتى أصبح أكثر الناس متعلمين ، وكيف ازدهرت الآداب والفنون ازدهاراً يقوى وينخفض بحسب الظروف السياسية والعهود المختلفة التى مرت بها الأندلس ، وكيف أن روح التعصب قد حدّت أحياناً من نشاط الفلسفة والعلوم العقلية .

ويحسن أن نشير فى النهاية إلى أن الأندلسيين كانوا فى آدابهم مقلدين للمشارقة لأنهم كانوا يرون فيهم المثل الأعلى لشعرهم وأدبهم ،ويجدونهم منبع علومهم وآدابهم وفنونهم ، وقد ظلت معانى الشعر الأندلسى سطحية ليس فيها إكثار من الحكم وطرق المعانى الفلسفية وذلك لعدم إقبال الشعراء والأدباء على الفلسفة العقلية ولانصرافهم إلى اللهو والحياة السهلة .

وقد كان من نتيجة انتشار الكتابة فيهم وقلة الأمية أن كان عدد الشعراء والأدباء كبيراً ، فقد كان أكثر الخلفاء والفقهاء والوزراء ينظمون الشعر ، بل نجد روايات أدبية تذكر أن بعض السوقة ينظمون الشعر باللغة العربية الفصحى ،

---

(١) انظر : Dozy *Histoire des Musulmans d'Espagne* .

وعلى رغم كثرة عدد الشعراء ووجود طائفة من النابغين فقد قصَّروا عن اللحاق بفحول الشعراء المشرقيين ، وذلك لإقبالهم على اللهو وانصرافهم عن كل ما يكد الذهن من دراسات عقلية . ولنظرتهم المثلى لكل ما كان يرد من الشرق من فكر وأدب وفلسفة والنسج على منواله دون أن يعمدوا ، على الغالب ، إلى إبداع أصيل .

obeikandl.com